الرحيل.. من أجل مها

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحـاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail : unecriv@net.sy

aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

http://www.awu-dam.org

❑❑

الدكتور أحمد زياد محبّك

الرحيل.. من أجل مها

* قصص قصيرة *

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق – 2003

عــود قصــب أجــوف

يفتح القمر سلّته البيضـاء، ينثـر الفل والياسـمين مـن خـلال السـحاب المشعشـع بالضـوء الفضـي، فتتلقـاه أسـطحة المنـازل، وأفنية الدور وعرائش الدوالي، ويسطع العبق.

ينهض، يفتح صندوق ناياته، أنامله تلثم النايـات، تنتقـي نايـاً من بين نايـات مختلفـة الطـول، تمضـي قدماه، تلمسـان بـلاط الـدار المفـروش بعطـر القمـر، يـتلمّس بأناملـه النـور المنثال على حافة البركة، يتنسّم ملء رئتيه الضـياء، يحسّـه يمتدّ يمتدّ مثل نفسه العميق، ويركز على شفته العطشى ثغر الناي.

أغصـان شجرة التوت الباسقة في وسط الفنـاء والمظللـة للبركة، تحسّ دفء النشيد، فتحنو، النسغ يغرّد في الفـروع، تـرتعش الوريقـات مـع ارتعـاش أصـابعه علـى خصـر النـاي الأهيف، وترقص الثمار.

اليمامـات الهاجعـة تصـحو علـى حلـم أعشـاش دافئـة، فيأخذ بعضها في زق بعضها الآخر، وتتزلـق أطيـاف الحلـم على أطراف الريش المهفهف الناعم.

تخرج إليه أمّه، تجرّ الثمانين وراءها:

ـ لماذا لا تنام يا ولدي؟

- وكيف تريدين لهذا الناي أن ينام؟ وكل الكون من حولي يقظ، ينتظر لحنه.

- ولكن لا أحد يحسّ بك، لا أحد يراك.

- حسبي أني أنا من يرى الكائنات والكون كله.

- ولكن

- عينا قلبي يا أمي بعمق البئر التي في فناء الدار، أنا أسمع خفق البراكين، وهمس النجوم.

- ليت لي عينيك يا ولدي.

- أمي، لا تفتحي جراحاً في جراح مفتوحة

- ليتني مت مثلما مات والدك

- أبي أورثني هذا الناي، فهو لن يموت، وأنت علمتني عشق العالم، فأنت لن تموتي، وأنا لن أموت.

يحسّ دحرجة الدمع في صدرها، يلمس اختناق الحرف على لسانها، صوتها ما عاد يصله، كأنه نبض منطفئ.

- أرجوك أمي، اذهبي، نامي.

- كيف أتركك وحدك؟

- لست وحدي.

ويفتح الأجفان، يفتح نشيده الليلي، وتهفو إليه النسمات من الجهات العشر، ترنو إليه الجدران والأسطحة والعرائش العابقة بالضوء الفضي، وتسرح في الأرجاء أشذاء النغم، وتشدو ابتسامة عذبة في وجه القمر، بعد أن تنفتح عنه ستائر الغمام، وعلى سطح بعيد يموء قط أشقر

جميل، جافاه النوم.

وتنفتح نافذة في غرفة سامقة، مطلّة على النغم، يفتح مصراعيها ساعدان بضان، فيضوع نغم جديد، تنثره ضفيرتان شقراوان، وينثال من شال شفيف شذى ناعس.

يهبط من فوق حافة البركة، قدماه تلمسان بلاط الفناء المثلج بضوء القمر، يرفع وجهه إلى إشراقة النافذة، يتنسم الشذى، يتلقاه وجه طفلي، يبصره بعينين زيتيتين، وفم قرنفلي.

يحسّ البسمة المنداحة على الفم مثل فراشة، يلمس النظرة الرخية المنسابة من وراء رموش هامسة، يرف في روحه الشال العطر.

أنامله تخاصر الناي الناحل، ترفعه إلى أعلى، تدغدغه، أنفاسه الحرى تنفث فيه الروح، وحول الناي الناحل يدور النغم، وتدور البركة، وتدور شجرة التوت والجدران والأسطحة ونافذة الغرفة السامقة، وتدور الأرض والسحاب والقمر.

وعلى مويجات النغم تحلق فراشات الشذى، ترسم قوس قزح، يحل في المحيطات، يبلغ قبرص وجزر الهند وجزر هاواي، ويحلق النغم ثانية، فيستكشف بحاراً وجزراً ومحيطات وقارات لم يعرفها من قبل لا البحارة ولا الجغرافيون ولا كل المبصرين.

وترف بقعة سوداء أمام وجه القمر، تحلق، تقترب، تدنو شيئاً فشيئاً، تفرد جناحيها، تمدّ منقارها، ثم تحط على السطح، وتصيح: " واق ".

وتغلق النافذة في الغرفة السامقة المطلة على النغم، تغيب خلفها الضفائر والعينان الزيتيتان والوجه الطفلي. تسدّ الصرخة ثغر الناي، فيختنق، وتجمد الأصابع، وتنشد العروق في الوجه، تيبس الشفتان، وتنغلق الأجفان.

يتسرّب صوت مفرقع مثل أصابع عجفاء يابسة :

ـ جميل عزفك أيها الفتى.

يتلمس جذور الصوت، يتحسس عروقه الجافة، يسأل:

ـ من أنت؟

ـ أنا هنا، أسكن في جوارك، لصق دارك، بل لصق كل دار.

ـ وكيف دخلت ؟

ـ كل الأبواب مفتوحة أمامي.

ـ وما تبغين منّي ؟

ـ منحك كل ما تبغيه أنت منّي

ـ لا، لا أبغي منك شيئاً

ـ لو شئت ملأت بالذهب عينيك، أحطتك بالقصور، جلبت لك كل نساء الأرض الجميلات.

يصمت هنيهة، ثم يصيح:

ـ عرفتك، جئت إليّ قبل عام، قبل مئة عام، قبل ألف عام، جئتِ إليّ مرات ومرات، في صوت وأصوات، طرحت عليّ ألف سؤال، وكان جوابي هو الجواب.

ـ لا يدهشني أنك عرفتني، ولكن يدهشني أنك مازلت فتى، لم تكبر، ولم تشخ مثلي.

ـ أنا الضوء واللحن والشذى، أنا أولد كل يوم .

يحسّ لهاث صدرها الشائخ، وهسيس قدمين تجرّان الخطو، ووقع عصا تدق على الأرض، يشدّ قبضته على نايه الناحل، يخبئه في صدره الناحل، ثم يصيح:

ـ لا تقتربي.

مثل حجر على حجر يجرش الزؤان، يأتيه صوتها:

ـ مادمت قد عرفتني، فلأقل لك: أنت على خطأ.

ـ وما الصواب؟

ـ اعزف في قصر قائد الجند

ـ أنا أعزف في كل مكان.

ـ اعزف غداً في زفاف وليّ العهد

ـ أنا أعزف في كلّ آن

ـ اعزف للسلطان

ـ أنا أعزف لكل الناس

ـ أنت الخاسر

ـ ما فكرت قط في ربح ولا في خسارة، ولن أفكر، حسبي هذا الناي.

هسيس عصاها يشق الهواء، وصوتها الراعش يتبعه:

ـ عصاي هذه أنفع منه، بها أطوف العالم كله

ـ لا مجال للمقارنة

ـ هي مثله من عود قصب أجوف

ـ مادام بين يدي، فهو عنها مختلف

ـ لن يبقى بين يديك طويلاً

ـ وأنت لن تبقي بعده طويلاً

ـ لن تفعل شيئاً.

ـ الناي، أو عود قصب أجوف، هو الذي سيفعل.

ـ ستندم.

وتطبق فمها، فيحسّ اصطدام أنفها المحدودب بذقنها الناتئة، وتدق بعصاها الأرض، فيرف بجناحيه الغراب الأسود.

يقعد على حافة البركة، يمدّ يده إلى صدره يريد إخراج

النـاي الناحـل، وتمتـد اليـدان الناعمتـان إلـى النافـذة تريـدان فتحهـا، ومـن وراء غمامـة يحـاول القمـر الخجـول أن يطـل. وإذا باب الدار يفتح على مصراعيه مدويّاً في زعقة تفتح جروحـاً فـي وجـه القمـر والسـحاب ونسـغ الشـجر وأجنحـة الحمـام وفـي الجـدران والأسـطحة، وتهـوي أحـلام الفـل والياسمين.

وتصـخب أحذيـة ثقيلـة تضـرب الأرض، تـدوس ضـوء القمـر بمسـامير مـن حديـد، وتقعقـع خـوذ وأسـلحة وسلاسـل وقيـود، جنـود يملـؤون الأسـطحة، يسـدّون الأبـواب، وتغلـق العينين المغلقتين عصابة سوداء، وتغلق الفم المغلق عصابة سـوداء، وتُشَـدُّ اليـدان إلـى وراء، ويُحمـل الجسـد الناحـل، ويحمل معه الناي الناحل.

ينفتح مصراعا النافذة في الغرفـة السـامقة المطلـة علـى بقايا النغم المرشوش على الجدران والأسطحة، وينفتح الفم القرنفلي في الوجه الطفلي عن صيحة تسترجع عبق النـاي، وتخرج الأم من غرفتها، تفتح يديها، فلا تجد غير البـاب المفتوح، والصمت المفتوح.

وتفـتح السـماء سـحاباتها السـوداء عـن وجـه القمـر الحزين، وتتماوج أمامه بقع سوداء، ويسمع دبيب عصا تدق الأرض، ويظل وجه القمر مفتوحاً على المشهد.

تنفـتح الأرض، تهتـز راعشـة، تنشـق عـن كتلـة طـين تصـعد، أصـوات آلات طـرب وغنـاء مختلفـة متنوعـة، مـن الجهات العشر، تعزف، تملأ الجواء، تتعانق، تصنع قوس قزح، تلف بقايا الشذى من نـاي ناحل، وبقـع سـود صـغيرة تـتلامح، تظهـر، تقتـرب، شـيئاً فشـيئاً، ولهـاث صـدر شـائخ يحشـرج، وعـواء حيوانـات شـتى وفحـيح أفـاع، وضـربات عصا تدق الأرض.

آلاف الأيدي تمتد إلى كتلة الطين الصاعد من رحم

الأرض، تستقبله، تحتضنه، أيد تشكل الطين من أمام، أيد تشكله من وراء، تصنع وجهاً، تصنع ساقين، ترسم عيناً، ترسم عينين.

أصداء ناي تقترب، تدنو، تقوى، ثم تلين، تضعف، تغيب، وكرَّةً أخرى تصعد، وأجنحة غربان تخفق، مناقيرها تمتد، وحشرجة صدر شائخ تطغى، وفي السواد تكاد الأنوار تذوب.

نوافذ صبايا في غرف سامقة تفتح، ومناديل تخفق، تلوح، وجدائل تقطر شذى، وأمهات ينادين أبناءهن، وآلاف الأيدي ما تزال في كتلة الطين تعمل.

ناي القصب الوحيد يئن، عصا القصب الشائخة تعوي، والأيدي ما تزال تعمل، تشكل عود قصب أجوف، تشذبه، تنجره، والقمر في السماء من خلف السحاب يشهد.

خوذ وعتاد وسلاسل وقيود تقعقع.

وينفتح السؤال: إلام ترى سيتحول بين الأيدي عود القصب الأجوف؟.

الخزانة و المرآة

كل يوم صباحاً أسمع النداء، يتسرب إلـيّ قادماً من بعيد، كأنه قادم من مغاور ماض سحيق، يقترب شيئاً فشيئاً، ويدنو حتى يصبح صاخّاً كالحاضر الثقيل، ثم يمضي ليبتعد شيئاً فشيئاً كأنه يغيب في سحابات مستقبل بعيد. ما كنت أتوقع أن أناديه يوماً، ولكنني لا أعرف كيف ناديته اليوم فجأة ومن غير توقع، بل لعلي كنت أتوقع منذ وقت قريب أن أناديه، ولكنني كنت أرجئ نداءه، لا أعرف لماذا؟ أعرفه جيداً، أعرف نداءه وأحفظه، وأحفظ طريقته في النداء، بل لعلي أستطيع تقليد نبرته وأسلوبه، كنت أكره وأنا طفل الاستيقاظ على ندائه، يتسرب إلـيّ قادماً من آخر الزقاق، نداؤه كان يعني بالنسبة إليّ الاستيقاظ والذهاب إلى المدرسة، وفي بعض الحالات كان يعني تناول الدواء، ولذلك كرهته.

ذات يوم سمعت أمي تقول لأبي عن جارتنا في المنزل المقابل:

- اليوم باعت جارتنا لنوح بائع الحاجات القديمة كل الأثاث الذي تركه والد زوجها.

ويسألها أبي:

ـ حتى الخزانة والمرآة ؟

ـ نعم، حتى الخزانة والمرآة.

تذكرت أني وأنا في الزقاق رأيت العجوز نوح وهو يحمل على ظهره خزانة أدهشتني، حسبتها أول وهلة خزانتنا، كان يحملها بحرص شديد كأنه يحمل خزانة عروس، كانت إذن خزانة الحاج مختار والد جارنا صبحي وقد باعتها زوجته.

ويعلق أبي بحسرة:

ـ لو أعرف كنت اشتريت منها المرآة وحدها بخمسمئة.

وتتكلم أمي بتذمر:

ـ لا أحب حاجات الموتى في بيتي.

ويتكلم أبي:

ـ لن تقدّري مكانة تلك الخزانة في نفسي، هي توأم هذه الخزانة التي أمامك، والد جاري ووالدي، رحم الله الاثنين، كانا أكثر من جارين، كانا أخوين حقيقة، وأظنكِ فهمتِ بعد ذلك بقية الحكاية، كانا يذهبان إلى السوق دائماً، فيشتري كل واحد منهما مثلما يشتري الآخر.

وصمت برهة، وهو ينظر إليها، ثم قال:

ـ أنا متفائل بهذه المرآة، فهي تجلب السعادة، وتصنع الحظ الجيد، هل عرفتِ لماذا؟

وتهز أمي رأسها مستفسرة، ويتابع أبي كلامه:

ـ لأنها مشرقة مثل وجهك المشرق، نقية مثل نقاء روحك، أنا لن أبيع هذه الخزانة ما حييت، وأرجو ألا تبيعيها بعدي.

ثم نظر إلي نظرة ، كأنه يقول لي: وأنت أيضاً عليك

ألا تبيعها. ولعلي بعد ذلك نسيت الخزانة والمرآة، وبالأحرى ما نسيتها إنما غدت شيئاً عادياً مألوفاً في حياتي اليومية، ولكن لم أنس ذلك الصوت الشائخ المتهدج الذي كان يأتيني كل صباح، إنه صوت نوح منادياً يغري الناس ببيع ما لديهم من أشياء قديمة، حتى إني لأسأل نفسي: أما يملّ هذا الرجل؟ وهل هناك كل يوم ما هو قديم؟ اليوم أصبح كل شيء قديماً، بل في كل ثانية ثمة ما هو قديم، ولا جديد أبداً، بالنسبة إليّ على الأقل، ولاسيما بائع الأشياء القديمة أو بالأحرى مشتريها، صوته هو نفسه، نغمته في الأداء هي نفسها، إلا أن صوته أصبح أعلى، أصبح أكثر إزعاجاً، لأنه أصبح يستخدم مكبر الصوت، وأخذ يطوف الشوارع بناقلته الصغيرة، تنقلت بين أربعة منازل، منذ أن كنت في العاشرة في دار جدي إلى اليوم حيث أنا الآن في دار ولدي الأصغر أمجد، ولكن لا بد من أن أعترف بأن ثمة ما هو جديد في حياتي، حسام حفيدي يصر على تعليمي مبادئ العمل على الحاسوب، لن يفيدني الحاسوب يا ولدي فقد تجاوزت السبعين، هكذا قلت له في البداية، ولكنه أصر، الحقيقة لست بنادم، هو عالم مذهل حقيقة، ولاسيما عندما ربطني بشبكة المعلومات العالمية، العالم كله بين يدي، وثمة ما هو جديد في كل ثانية.

حسام أذهلني وهو يتصل بشبكة المعلومات، والحاسوب أذهلني أكثر، لعلي لأجل هذا ناديت بائع الحاجات القديمة، مع أني أكرهه منذ صغري، أكره صوته ونداءه، وأكره شراءه الأشياء القديمة، وأكره أكثر بيع الناس أشياء موتاهم هرباً من الذكرى. مع ذلك ناديته، لا أعرف حقيقة لماذا؟ هل كنت أود بيع الخزانة بدلاً من أن يبيعها بعدي أحد أحفادي؟ هل أدركت أنها لم تعد ذات قيمة وعليّ أن أبيعها أو أتخلص منها بأي شكل كان؟ لقد حملتها معي من دار إلى دار، صحبتني وأنا طفل، ورافقتني وأنا كهل، ولازمتني وأنا شيخ عجوز، فإلى متى؟ أحياناً أحس

أن حفيدي حسام قد بدأ يتذمر منها ويضيق بها ذرعاً، ولكن ماذا أقول له؟ إلى متى سأظل أحفظ وصية أبي؟ إلى متى سأظل أحمل الذكرى ؟ أنا نفسي مللت.

أحياناً أذكر يوم زارتنا خالتي خديجة وبصحبتها ابنتها وداد، لعبنا معاً لعبة الاستخباء، أنا وهي وأخوها سمير، وكانت هي في عمري وكان أخوها أصغر منا نحن الاثنين، كنا نختبئ تارة هنا وتارة هناك، فجأة قلت لها : تعالي لنختبئ معاً هنا في الخزانة، واحتوتنا معاً، وإذا نحن في قلب العتمة، أحسست بشعور غامض وهي معي، أنفاسها اللاهثة قريبة من وجهي، أحس دفئها وشذاها، وبصيص من النور يتسرب إلينا من شق الباب، فأرى أنفها الناعم وعينيها الزيتيتين، شعرت أننا سنبقى معاً إلى الأبد، لن يهتدي إلينا أخوها سمير بل لن يهتدي إلينا أحد، غمرني شعور بالسعادة لأنها معي، ولأننا وحدنا معاً، ولا أحد يدري بنا، فجأة قالت لي: سأختنق، قلت لها: لا تخافي، سأمنحك أنفاسي، وأطبقت فمي على فمها، تلمست بشفاهي شفتيها، أحسست بهما رقيقتين جداً ناعمتين، تنسمت شذى أنفاسها، وهي تقول: لا، سأقول لأمي، ثم تفتح باب الخزانة، وتخرج وأنا أتبعها هامساً: لا، لا، لا تقولي لأحد أي شيء.

ولكن ماذا ينفعني أن أذكر ذلك كله؟ هل أنقشه على جدار الخزانة؟ هل أرويه لحفيدي؟ ولماذا؟ أليسخر مني؟ أحياناً أنظر في المرآة فأرى الشيخوخة وآثار السنين، بل أذكر يوم خرجت من المشفى فإذا بي أرى شحوب وجهي ونحول جسمي، وكدت أقول لأولادي: أبعدوا هذه المرآة عني، حطموها، ولكني.

واليوم، حقيقة لست أدري لماذا ناديت بائع الحاجات القديمة، أو مشتريها، فالأمر سيان، لأنه في الواقع يشتري ويبيع ما يشتريه، تأمّلته، وهو يتفحص الخزانة، لاحظت علامات الإعجاب بادية على وجهه، سررت كثيراً، قلت في نفسي: هي حقيقة ذات قيمة، ولابد أنه سيدفع فيها ثمناً جيداً،

ولاشك أيضاً أنه سيبيعها بسعر مرتفع، لأحد هواة الأشياء القديمة، ولكنني في الحقيقة لا أريد بيعها، ولا أستطيع تقديرها بثمن.

ووجدتني فجأة أقول له، وهو ما يزال يتفحص الخزانة مأخوذاً بها:

- هذه الخزانة لها مكانة في نفسي، ورثها أبي عن جدي وورثتها أنا عن أبي، هذه المرآة وحدها تساوي الكثير، فهي تجلب السعادة حقيقة كما قال أبي، هل تصدق أني أشعر بالبهجة وأنا أرى صورتي فيها كل صباح قبل خروجي من البيت؟ لقد رزقني الله خمسة أولاد، أحفادي أصبحوا شباباً، ولقد لازمتني طوال عمري.

ودعوته إلى الجلوس، فلم يتردد، بل سرعان ما اتخذ لنفسه موضعاً قبالة الخزانة، قلت له، وأنا أرى وجهه في المرآة:

- كان عمري عشر سنوات تقريباً، وكان يمر في حيّنا كل صباح مثلك بائع الأشياء القديمة، وكان ينادي كل صباح مثل ندائك، الله يرحمك يا نوح.

والتفتَ إليَّ مدهوشاً، وهو يسأل:

- وهل تعرفه؟

- ألم أقل لك: كان يمر كل يوم بالزقاق وأنا ابن عشر سنين؟

- نوح جدي، واسمي نوح على اسمه، هو الذي أورث أبي هذه المهنة.

وأعلّق:

- صدق المثل القائل: جبل مع جبل لا يلتقي، ولكن ابن آدم مع ابن آدم يلتقي.

وأقدم له الشاي وقطعتين من الحلوى، وأعتذر عن

مشاركته بسبب السكري وارتفاع الضغط.

ويفجؤني بقوله:

ـ أنا سأشتري هذه المرآة فقط.

كأني أسمعه مثلما كنت أسمعه وأنا طفل، أستنكر كلامه، أجد نفسي حائراً، حتى الآن لا أعرف حقيقة لماذا دعوته؟ هل أريد حقاً بيع الخزانة أو المرآة؟ أقول له:

ـ ولماذا المرآة وحدها؟

ـ عندي في بيتي خزانة مثل هذه الخزانة، هي أختها التوءم، ورثتُها عن أبي الذي ورثها عن أبيه ، قلت لك إن جدي هو الذي أورثنا هذه المهنة، ولاشك أنه هو الذي اشتراها فيما كان يشتري من أشياء قديمة، كان جدي، الله يرحمه، كما حدثني أبي، هاوياً أكثر مما كان تاجراً، وأنا الآن مثله، إذا اشتريت قطعة نفيسة أخذتها إلى البيت، واحتفظت بها لنفسي، صدقني لا أبيعها بمال الدنيا، والخزانة التي عندي في البيت هي أغلى عندي من روحي، ربما لا تصدق إذا قلت لك، وقد تقول إني كاذب، أنا مثلك، لا أخرج من البيت إلا بعد أن أرى صورتي في مرآتها التي كانت مثل هذه المرآة، وكل يوم أقول لزوجتي: امسحيها واعتني بها حتى تصبح صافية، لأن المرآة كما تريها تريك، أريدها دائماً صافية.

وأقاطعه قائلاً:

ـ ليس بالضرورة أن تريك مثلما تريها.

يشتفّ الشاي مرسلاً صوتاً كالزعيق، ثم يرد بحدّة:

ـ والله يا أخي لا أعرف، أنا هكذا سمعت المثل، وأنا أعرف أن الأوائل صدقوا فيما قالوا، لأنهم ما قالوا أي شيء إلا بعد ما عاشوا وشافوا، أنا هكذا قال لي جدي: المرآة مثلما تريها تريك، وهكذا حفظته.

ـ وأنا أيضاً يا أخي الحبيب قال لي المحامي الكبير في آخر يوم من أيام تدريبي عنده: انظر إلى هذه المرآة

الموجودة على الطاولة أمامك ماذا تفعل، ونظرت فقلت له: إنها تكبّر، قال اقلبها على الوجه الآخر، ثم قل ماذا تفعل؟ فقلبتها، ثم قلت له بعد أن نظرت فيها: إنها تصغّر، هز رأسه ثم قال: هذا هو مبدئي أنا، قد لا توافقني لا أنت ولا غيرك عليه، أنا لا يهمني ما يقوله الناس ، وهذا هو سر نجاحي، لا أقول لك إنه سر هذه المهنة، إنما أقول لك هذا هو سر نجاحي، فإذا أردت أن تكون ناجحاً مثلي فما عليك إلا أن تصوّر بعض الأمور أكبر مما هي عليه في الحقيقة، وأن تصوّر بعض الأمور أصغر مما عليه هي في الحقيقة، حفظت كلامه، وما أزال أحفظه، وبقيت أربعين عاماً أعمل محامياً.

ويسألني مدهوشاً وهو يشتفّ الشاي من كأسه:

ـ وعملتَ بكلامه؟

ـ ربما فكرت أكثر من مرة أن أعمل بكلامه، ولكن لم أستطع، ومع ذلك كنت محامياً ناجحاً، بفهمي الخاص على الأقل لمعنى النجاح، وكان سرّ نجاحي هذه المرآة، فقد حدثت والدي حديث ذلك المحامي، فدهش، وقال لي: ياولدي، هناك ألف مرآة ومرآة، هناك المحدبة والمقعرة والمموّجة والمتسخة والصدئة، وعليك أن تعرفها كلها، أنا لست محامياً ولا قاضياً، ولا أعرف شيئاً في القضاء، هكذا قال لي والدي،ثم أشار رحمه الله إلى هذه المرآة، وقال: ولكن اذكر دائماً هذه المرآة التي هي في بيتك، هذه وحدها يجب أن تكون مرآتك، أو أي مرآة أخرى، ولكن بشرط أن تكون نقية صافية مثلها.

اشتف آخر قطرة في كأس الشاي، رفعها إلى الأعلى محيياً، وقد تهلل وجهه، وعلاه السرور، وهو يقول:

ـ مدّ الله في عمرك وأدامك وأدام شايك، أقسم بالله العظيم، ويدي على القرآن الكريم، والله تعالى يشهد، أن مرآتي كانت مثل صفاء هذه المرآة ونقائها، وصدّقني، إذا

حدثتك عنها بعد ذلك فسوف يطول الحديث، ولكن ذات يوم فجعت بها، لا فجعك الله بعزيز، ولدي، ولدي سامح، كان يلعب مع أخته سناء بحجارة الشيلة والحطة، طار من يده الحجر، وفرطت المرآة مثل حبات السبحة، والله حزنت عليها حزني على أمي، يومها بكيت، بكيت أكثر مما بكيت يوم وفاة أمي، وولدي سامح ماذا أفعل به؟ الولد غالي، سامحته، ولكن قلبي فرط.

وتقلصت ملامحه وكاد يبكي، قدمت له كأساً أخرى من الشاي، وألححت عليه كي يتناول قطعتي الحلوى، أخذ يحدثني، وهو يتناول الحلوى بهدوء، وأنا ذاهل، كان حديثه كالمرآة نفسها، وكأني أرى ذاتي فيها، الاختلافات موجودة، ولكنها قليلة جداً، ثم ودّعته وهو يحمل المرآة، وخرجت إلى الشرفة لأراه وهو يحزمها بعناية فائقة في ناقلته الصغيرة، ثم يمضي بها بهدوء، وهي تأتلق كأنها قطعة من أثاث جديد لعروس ستزف الليلة.

ليست المرأة وحدها من يحب المرآة، الرجل أيضاً يحب المرآة، وهل في هذا أي عيب؟ وبعد ذلك أليست المرأة مثل الرجل؟ أو ليس الرجل مثل المرأة؟ كل منهما يريد أن يرى نفسه في المرآة، ليس نرسيس وحده كما تروي الأسطورة يعشق صورته في المرآة، ربما كان الحكام والملوك أكثر منه ومن كل النساء عشقاً لصورهم وهي تتكرر مئات المرات في كل مكان من الوطن الذي يودون أن يرسموا صورتهم على خريطته، وربما كانوا يحلمون برسمها على خريطة العالم كله، مهما يكن من أمر، ففي المرآة تجد نفسك، تراها قبل أن يراها الآخرون، أليس هذا جميلاً؟ أنا أحب المرآة لأنني أرى فيها إنساناً آخر يشبهني، هو أنا في الحقيقة، وفيها أرى نفسي أيضاً، وكأني إنسان آخر، فالآخر فيها هو أنا، وكل إنسان يرغب في أن يكون الآخر هو نفسه، أو مرآة له، وهذا ما تحققه بكل بساطة المرآة، ولذلك ربما كنا جميعاً نحب المرآة، على كل

حـال تظـل المـرآة أجمـل مـن الخزانـة، الخزانـة تحتويـك، تخبئك، تخفيك، أما المرآة فتظهرك، تضيئك، تخرجك إلـى الكون والحياة، ولكن من المؤسف أيضاً أنه لابد من الخزانة والمرآة معاً، الخزانة دائماً وراء المرآة، ولكنك أحيانـاً تكره نفسك ولا سيما عندما تراهـا فـي المـرآة، فتـود لـو تحطـم المرآة، آه لو كان تحطيم المرآة وحده يكفي، لكنت حطمتها ألـف مـرة، حقاً صدق مـن قـال: مـن أدام النظـر إلـى المـرآة أصابه الجنون.

وأرجع إلـى الخزانـة، لـم تعد خزانـة، أصبحت محض صندوق خشبي، لا بـاب لهـا ولا مـرآة، كأنهـا عجـوز درداء تفغر فاها ولا أسنان فيه، أو كأنها قبر قديم مفتوح، أقعد فـي بـاب الخزانة، أطـوي قدميّ تحتـي، الخزانـة تحتـوي جسمي الشائخ الناحل المضمحل، كأني طفل أقعد في حضن جدتي.

لا أكـاد أصـدق أنـي تخلصـت منهـا بهـذه السـرعة، كالعصفور طـارت مـن يـدي، كيـف فرطـت بهـا وأنـا الـذي احتفظت بها طول هذا العمر؟ ليت لي بدلاً منهـا مـرآة عـلاء الدين كي أرى المستقبل، ولكن ما الذي تبقـى لـي منـه ومـاذا سـأرى؟ لقد فقدتها حقيقـة ولـن تغنينـي عنهـا أي مـرآة، فـلا شيء في الحقيقة يمكن أن يكون بديلاً مـن أي شـيء، مـرة واحدة فقط قالت زوجتي، عليها رحمة الله، ما رأيك بتبديل الخزانة؟ غضبت منها يومئذ أشد الغضب، ولبثت أربعة أيام لا أكلمها، حتى بـادرت هـي إلـى الاعتذار إلـي، حقيقـة كنـت أودّ الاحتفاظ بالمرآة لأجلها هي، كان يسعدني كثيراً أن تقعد قبالتها لتصفف شعرها، أو لترسم بـالأحمر علـى شـفتيها، أو تقـف أمامهـا لتبـدل ثيابهـا، وأنـا أتأمـل صـورتها فـي المـرآة، فأراهـا أكثـر فتنـة، قلـت لهـا مـرة هـذا هـو فـي الحقيقـة سـرٌّ احتفاظي بالمرآة، فلم تصدق.

ويـدوي صـوت اصـطفاق حـاد، الخزانـة تقعقـع، تهتـز، هل ستسقط فوقي؟ هل ستتحول إلـى قبري؟هل اصطدمت

ناقلة نوح الصغيرة هناك وراء المنعطف بسيارة طائشة؟ هل تحطمت المرآة وتهشمت؟ ويدخل حفيدي حسام، وقد صفق الباب وراءه بحدة، يقف أمام الخزانة، يبادرني قائلاً:

ـ ولماذا بعت المرآة وحدها ولم تبع معها الخزانة؟

وأرد :

ـ من قال لك إني بعتها؟

ـ كنت قادماً بسيارتي من أول الشارع، كنت منطلقاً بسرعة، أنت تعرف أني لا أستطيع إلا أن أقود بسرعة، حتى إنك دائماً تصفني بالطائش، وعند المنعطف التمعت أمامي مرآة كبيرة، تحملها ناقلة صغيرة كدت أصطدم بها، عرفتها على الفور، وقلت جدي باع مرآة الخزانة، وتمنيت لو أنك بعت الخزانة كلها، فلم يبق لها موضع في البيت.

أنهض، أنزل من الخزانة بهدوء، أحس أني قد تضعضعت، اضطر إلى الاتكاء على حفيدي، أقول له:

ـ وأنا يا ولدي كنت في الزقاق عائداً إلى البيت، قبل أكثر من ستين عاماً، فرأيت نوح العجوز بائع الأشياء القديمة وهو يحمل خزانة تشبه هذه الخزانة، ثم رأيت أمي وهي تحدث أبي عن جارتنا التي باعت خزانة والد زوجها، سامحني يا ولدي أظن أني حكيت لك هذه القصة من قبل أكثر من عشر مرات، نحن العجائز دائماً ليس عندنا غير الماضي، فنضطر إلى الحديث عنه، لأنه أجمل ما نملك، واليوم أنا لم أبع المرآة، لقد أشفقت عليه يا ولدي، أحزنني حديثه، اسمه نوح، مثل اسم جده الذي أعرفه وأنا طفل، لقد تحطمت مرآة خزانته، هي خزانة جارنا الحاج مختار من غير شك، هي توأم هذه الخزانة، هو شاب وليس شيخاً على حافة قبره مثلي، كم صعب عليَّ أن يُحْرَم من السعادة التي ستجلبها له هذه المرآة، لذلك أقسمت عليه إلا أن يحملها، صدقني كاد يبكي عندما حدثني عن

المرآة التي انكسرت ، الآن عرفت لم يكن هو ولا جده تاجر أشياء قديمة، إنما كان هاوياً.

وأصمت، وأنا أرى الضجر في عيني حفيدي.

لا أعرف لماذا كنت أكره صوته، لقد ظلمته، لعلي ظلمته كثيراً، الآن بدأت أحبه وأحب صوته وأحب اهتمامه بالأشياء القديمة، ليته يأتي غداً أو بعد غد، ليأخذ الخزانة ويأخذني أنا معها.

ويتكلم حفيدي:

ـ هل تعرف يا جدي؟ ذلك الرجل خدعك، لا اسمه نوح، ولا نوح جده، وليس عنده خزانة ولا مرآة.

قلت له بهدوء موارياً غضبي:

ـ لا، لا تسئ الظن بي، ولا بالناس.

ـ هذا الرجل خدعك يا جدي صدقني، انظر إلى منفضة السكائر، كيف ملأها بأعقاب السكائر، وأنت لا تحب التدخين، لا شك أنه قعد عندك أكثر من ساعة، وأنت تحدثه عن الخزانة والمرآة، وأطلت حديثك من غير شك وأعدته ربما عشر مرات، ومن حديثك أنت عرف كل شيء، واختلق الكلام فخدعك.

أنظر إلى منفضة السكائر فأرى فيها بضعة أعقاب، وأحس في فضاء الغرفة بقية من رائحة تبغ، من أين جاءت هذه البقايا؟ هل كان نوح يدخن حقيقة؟ لا أكاد أذكر، لعلها من يوم أمس، الليلة الفائتة كان حسام مع صديقه هنا في غرفتي، ادعى أن أخته تدرس في غرفته وأنه يود استقبال صديقه في غرفتي، لم تكن أول مرة، واليوم يفرح لبيع المرآة ويود التخلص من الخزانة كلها.

وبلهجة مختلفة يتكلم حفيدي:

ـ لو كنت أعلم أنك حقاً ستبيعها كنت أعلنت لك عنها على شبكة الإنترنت.

قاطعته بحدة:

ـ وهل تسخر مني يا ولدي؟

ـ لا، والله، يا جدي، وكان جاءك المشتري من باريس ودفع فيها ألف دولار.

ـ وهل سيأتي من باريس إلى هنا؟

ـ لا، سيتم الاتفاق بالبريد الالكتروني، ويحوّل لك ثمنها وأجرة نقلها والضرائب كافة، وتتولى إحدى الشركات نقلها.

ـ لا، لا أريد أن تبتعد عني، لتبق هنا في بلدي، وليهنأ بها نوح أو أحد أبنائه.

وبلهجة أخرى أيضاً مختلفة، يتكلم، فيفجؤني:

ـ ولكن صدقني يا جدي قبل يومين كنت على وشك أن أطلب منك أن تأذن لي بأخذ المرآة .

ـ ولماذا المرآة؟ ماذا ستصنع بها؟

ـ أوصيت النجار أن يصنع خزانة لعروسي، فأنت تعلم أن زفافنا سيكون بعد انتهائها من امتحان الجامعة، وكنت أمني النفس بوضع تلك المرآة في باب خزانتها لتكون دائماً في غرفتي أراها قبل خروجي من البيت كل صباح، فهي حقيقة تجلب الحظ، عندما كنت أدرس في غرفتك والمرآة موجودة كنت أحقق أفضل النتائج.

يذهلني حديثه، أحس بصدمة كبيرة، أنظر فيه غير مصدق، أكاد أقول له: ليتك وصلت قبل خمس دقائق فقط، دائماً الفرق بين نهاية ونهاية بضع دقائق، بل ربما ثوان، ويتغير كل شيء، ولكني أصمت لا أقول شيئاً، أنقل الطرف بينه وبين الخزانة، ماذا سيفعل بها وقد أصبحت محض

صندوق خشبي؟ هل سيكسرها ويرمي بها إلى القمامة فقد ذهبت المرآة ولم يبق شيء؟ هل كان نوح كاذباً؟ هل ادعى أنه نوح؟ هل استطاع خداع شيخوختي فأخذ المرآة من غير ثمن؟ وهل يصدق حفيدي حقاً في رغبته؟ ماذا لو كان هو الآخر يخدعني، ألم أحدثه أنا نفسي عن الخزانة من قبل أكثر من عشر مرات؟، ألا يردد هو الآخر أفكاري بل عباراتي نفسها؟ من أصدّق؟ فليكن كل ذلك، أجل فليكن، أنا لم أبع المرآة، ولم أنكث بوصية أبي، والمرآة لم تضع ولن تضيع، أين ستذهب؟ لاشك أنها ستستقر في باب خزانة جديدة لعروس صبية تمنح السعادة والبهاء لها ولزوجها ولأولادهما وللأحفاد.

وأسمع صوت حفيدي وهو ماض نحو الحاسوب:

- هيا يا جدي إلى الكومبيوتر، ألا تريد أن ترى بريدك الالكتروني ؟ لعل لك اليوم فيه رسالة جديدة.

تروق لي دعوة حفيدي، فأسير نحو الحاسوب، أحس بشيء من الدوار، ألتفت فأرى الخزانة المفتوحة، وقد أصبحت محض صندوق، كأنها تدعوني، أتجه إليها، أجد نفسي مرة ثانية قد قعدت فيها، ومن غير أن أشعر أطوي قدميّ تحتي، أضع رأسي بين يدي، أثني جذعي، ألتف على نفسي، الخزانة تحتويني، الشعور نفسه ينتابني مرة أخرى، كأني في حضن جدتي أو رحم أمي.الخزانة تهتز، تقعقع، لا أكاد أصدق؟ هل يحدث هذا مرة ثانية؟ كثيراً ما مررت بحالات جديدة كنت أحسب أني مررت بها من قبل، ولكن الأمر هذه المرة مختلف، هل أنا في حلم؟ ويدوي صوت انفجار حاد، هل اصطدمت ناقلة نوح الصغيرة وراء المنعطف بسيارة حفيدي حسام؟ هل تحطمت المرآة وتهشمت؟ لا، لا، لن تتحطم المرآة، لن تتهشم، ستقف أمامها في الصباح عروس بثوبها الأبيض لتسرح شعرها الأشقر الطويل، أهم بالنهوض لأستطلع الأمر، ولكن ثمة

دفء حنون يلفني، فتور كسول يغويني بالبقاء، يغشاني نعاس ناعم، يسري بي خدر هادئ لذيذ. يتسرب إليّ نداء حفيدي حسام:

- هيا ياجدي، لديك رسالة جديدة.

يتسرب إلي النداء الصباحي، يأتيني عبر صوت نوح وأبيه وجده، وسائر أحفاده، بل عبر صوت أبي وجدي، أحس به عذباً هادئاً كالحلم الجميل.

أهم بالنهوض مرة أخرى، أحس عسراً، كأن الانفجار هذه المرة هنا عند الصدر في موضع القلب، كأن التهشم هنا في الداخل، أحاول النهوض، أرى نوراً بهيّاً كأنه منعكس في صفحة مرآة، أكاد أنهض لألمسه، ولكن أحس أني سأستسلم لنوم طويل.

ﮋﮊ

اللقـــاء الجد يـــد

النسمات الصيفية الناعمة تنفحنا شذى الياسمين من عريشة تظللنا، ممزوجاً بعبق التبغ الفاغم، وإلى جانبنا بركة فيها نافورة ناعمة، وقد طفت على سطحها زهرات الياسمين، وتحلقت حولها موائد قعد إليها كهول أمثالنا، أرخوا أجسادهم المتعبة في مقاعد مريحة، وراحوا ينفثون دخان النراجيل، ويتذوقون القهوة المرة، مطمئنين إلى شجرة التوت التي تظلل المكان كله، وأوراقها تتحرك مع النسمات في حفيفٍ ناعم ينسجم ووسوسة الماء المتقاذف بهدوء من النافورة، لتعزف مع قرقرات النراجيل نغماً يبث على ألحانه كل كهل إلى صديقه الكهل شجون يومه، ثم يَشْدُوَان معاً ذكريات الأمس البعيد، والجمرات الحمر تشع في رؤوس النراجيل.

كنت أحدّق في وجهه، مثبتاً أنظاري فيه، وهو ينفث دخان النارجيلة، منقلاً نظراته، من مكان إلى مكان، على غير عادته، مختلساً بين الحين والآخر نظرة إليّ، وقد أدركت أنه يتوقع مني أن أبادر إلى الكلام حتى يبوح هو بكل شيء، فقلت له:

" يبدو أننا هنا في حاجة إلى لحظات نبتعد فيها عن

نسائنا، لنجلوَ مابأنفسنا من عناء النهار، ثم نرجع إليهن، ونحن أكثر صفاء ".

فعلق بهدوء :

" نعم، المرأة دائماً هي السبب "

أدركت على الفور أن ثمة مشكلة ما مع زوجته منى، فقلت له:

" في الواقع الحق معك، منى ابنة خالتي، وأنا أعرفها، عنيدة، حادة الطباع، ومتشبثة دائماً برأيها".

زال عنه شيء من الاكتئاب، وبدا أنه أصبح مستعداً للكلام، فقال:

" أخطأت ياصاحبي، منى قوية الشخصية، وأنا أحبها كذلك، وعلى كل حال ليست هي العلة، ولا السبب ".

" الوظيفة إذن ؟ "

" لا، لاأبداً، لاتعجَلْ علي، أمهلني أنا سأروي لك كل شيء، في الحقيقة منذ يومين أو ثلاثة فقط، بدأت لاأعرف ماذا أفعل، تغير كل شيء في حياتي، ولذلك دعوتك إلى هذا اللقاء، لأصارحك بكل شيء".

قلت له مقاطعاً :

" لازوجتك هي السبب، ولا الوظيفة، أنت عاشق؟!"

قال بشيء من الهدوء الذي يخفي وراءه عاصفة نار مشتعلة، وهو ينفث دخان النارجيلة:

" غادة البحر، هل تذكرها ؟ "

" لا، لا أذكر "

" لا، بل تذكرها جيداً، حاول فقط، أنت الذي سميتها بنفسك غادة البحر "

" آه، تلك التي رأيتها في شهر العسل قادمة إلى البحر لتصطاد "

احتد غاضباً، وقال:

" لا ياأحمد، هل حدثتك أنا عنها هكذا بكل بساطة : "فتاة قادمة إلى البحر لتصطاد"، أنت تريد اليوم إغاظتي، بل تريد دفعي إلى الجنون، هل نسيت كيف حدثتك عنها؟! يومها طار عقلك وجننت، يبدو أنك قد كبرت وعجزت".

" كبرت، نعم كبرت، ولكن عجزت؟ لا، وأنت ألم تكبر ؟ "

" لا، لم أكبر، فالصورة ماتزال تخفق في دمي، الشمس تسطع من ورائها ياأحمد، في أول شروقها ذهبية متألقة، تنهض من الأفق مثل قرص العسل، وهي تخطر قادمة نحوي بقوامها الرشيق، فراشة الربيع، تحمل صنارة الصيد، قدماها تتركان وراءها وشماً على الرمل يمتد إلى الشمس، وهي تدنو وتدنو مقبلة إليّ في ثياب البحر، النسمات تأتي منها، النور يأتي منها، وهي تصل إليك، وأنت أمامها، تخيل ياأحمد، لقد تلاشى كل شيء وغاب، سواها هي، ثم أزبد الموج عند قدميها، وقالت: "صباح الخير، هل تسمح لي بالصيد بقربك"، نكهة العسل وطعمه وشذاه، وأنت تذوقه أول مرة، هو صوتها، وقلت: "أخشى أن يغلبك سوء حظي؟، فقالت على الفور: " نغطس معاً في البحر، فتغسل عنك سوء الحظ"، وكان الأجداد يروون أسطورة تقول: " إذا استحمَّ معاً في ماء البحر رجل وامرأة لايعرف أحدهما الآخر، غسل عن جسدهما سوء الحظ، على شرط أن تكون الشمس في الأفق، لم تخرج منه، ولم تغب عنه"، والتفتنا معاً، أنا وهي إلى الشمس، كان معظمها قد سطع فوق الأفق، ولم يبق وراءه إلا خيط رفيع، ثم التقت أنظارنا، وعلى الفور، كل منا كان قد غطس تحت الماء، في لحظة واحدة، كأنما حرك جسمينا عقل واحد، وتشابكت منّا هناك الأذرع، ثم خرجنا لنقعد على الرمل معاً، يتأمل كل منا الآخر، مدهوشاً، وغرقنا في التأمل، لاهمسة، ولا نأمة، ولا كلمة،

لا شيء، لاشيء، توأمان، أو تمثالان صبًّا في قالب واحد، ياأحمد، آه لو كنت معنا، حتى الآن لاأكاد أصدق، هل كان حلماً؟ وهماً ؟ ولكن لا، هل نسيت ياأحمد، قل لي، مابالك بهتّ ؟! هل أتابع أم أصمت؟ "

" تابع "

" ثم التقط كل منا صنارته، ورماها في البحر، ثلاث مرات ياأحمد، ثلاث مرات، وفي كل مرة كنا نسحب الخيط معاً، ليخرج في الوقت نفسه في طرف الخيط سمكة، نجذبها إلينا، نخلصها من الصنارة، ثم نرشقها إلى البحر، نعيدها إليه"، من أعاد إلى البحر ماأخذه منه، حفظ له البحر ماأعطاه حتى آخر العمر" هكذا تقول الأسطورة، في المرة الثالثة هي التي خلصت سمكتي من الصنارة وأعادتها إلى البحر، وأنا الذي خلصت سمكتها في الوقت نفسه، وأعدتها إلى البحر، ثم كسرنا أعواد الصنارتين، ورمينا بها إلى البحر، وهي تقول: "جربنا حظنا ثلاث مرات، هذا يكفي"، ثم رجعنا معاً، كنا لانرى الفندق، ونحس أن الرمل يمتد ويمتد إلى غير ما نهاية، والشمس تسطع أمامنا، تدفئ أجسامنا، والنسائم الندية تنعشها ".

قاطعته في عصبية ونزق، قائلاً :

" نعم، نعم، تذكرت، ثم اقتربتما من الفندق، فسألتها عن اسمها، فذكَّرَتْكَ بالأسطورة، وقالت: "من غير أن يعرف أحدهما الآخر"، ثم أفلتت يدها من يدك، وركضت داخلة الفندق، وقعدت أنت في الحديقة، ساعة أو ساعتين، قبل أن تصعد إلى زوجتك، التي كانت نائمة "

كان يصغي إليّ وهو يحدق بي، محملقاً بحدة، مثبتاً ناظريه، حتى أيقنت أنه لايراني، وإنما يرى صورة ما في عقله، ولما صمتُّ، أضاف:

" وإلى الآن ماأزال أظن أنها كانت أيضاً في شهر العسل، فقد شاهدتها مساء تغادر الفندق متأبطة ذراع شاب يكبرها قليلاً ".

أحسست أنه زال عنه كثير من قلقه واضطرابه، وقد استسلم إلى خدر الذكرى، وشعر بقدر كبير من المتعة والسرور، وهذا مازاد في ضيقي بالحديث كله وضجري، إذ كنت أريد الوصول إلى سبب اضطرابه الذي حدثني عنه، فقاطعته، وقلت:

" نعم، نعم، عرفنا ذلك كله، وتذكرناه، وتذكرنا أيضاً أنك غادرت الفندق في صباح اليوم التالي قاطعاً شهر العسل، ولم تتمكن من سؤال الاستعلامات عنها، وقد قلت لك يومئذ لو أنك سألتهم لما أفادوك بشيء عنها، نعم، نعم، هذا كله نعرفه، ولكن مامناسبة هذا، وقد مضى عليه ربع قرن؟ ولم تذكره في أثنائه ؟ "

واندفع قائلاً :

" حقاً كنت لاأذكره ياأحمد، ولكنني كنت لاأنساه أيضاً، كنت في الواقع أعيش به، أحس أنني أمتلكه، يسري في دمي كما قلت لك "

قاطعته ثانية، وقلت:

" فهمت ذلك كله، ولكن ماعلاقته بالقلق الذي حدثتني عنه اليوم ؟ "

عاد إليه اضطرابه، اعتدل في جلسته، نفث دخان النارجيلة، وطلب من النادل فنجانَيْ قهوة آخرين، ثم قال:

" رأيتها، رأيتها ياأحمد "

" غير معقول ؟ ! في الحلم ؟ ! "

" رأيتها ياأحمد، التقيتُها في الشارع مصادفة، منذ ثلاثة أيام، أو أربعة، ماعدت أذكر، أكاد أجن "

وصمت، أرسل نظراته بعيداً عني، كأنما ينظر إلى نهاية العالم.

وطال الصمت، لم أستطع قول شيء، وأحضر النادل فنجانَيْ القهوة، رشف عادل رشفة، واعتدل في جلسته مرة

أخرى، ثم قال:

" لاأعرف ياأحمد ماذا أفعل؟ ! طلبت منها أن أعرف عنها كل شيء، فرفضتْ وذكَّرتْني بالأسطورة، وقالت: " إذا عرف كل منهما الآخر فسوف يزول عنهما حسن الحظ ".

" هل تغيَّرَتْ ؟ "

" قليلاً، امتلأ جسمها، وتكور، وكان معها ولد "

" متزوجة إذن ؟ "

" بالطبع "

" هي من بلدنا ؟ "

" لاأظن ذلك، وإلاَّ فأين كانت طول ذلك العمر؟ كما لاأظن أنها من مدينة البحر"

" لعلها ليست هي ؟ "

" كيف ذلك ياأحمد ؟ ! أخبرتك أنها قالت لي:" يجب أن يبقى كل منا لايعرف الآخر، وإلا زال عنا حسن الحظ"

ازداد قلقه، وقد رشف كل ماتبقى في فنجانه، ثم قال:

" لقد ضعت ياأحمد؟! لاأعرف ماذا افعل؟ لقد تغير كل شيء في حياتي"

" لماذا لم تعطها أنت اسمك وعنوانك ؟ ! "

" قدَّمْتُ إليها بطاقة باسمي وعنواني، فرَفضَتْ أخذها، فوضعْتُها أنا في حقيبتها، ولعلها انتزعَتْها من الحقيبة بعد أن تركَتْني، ومزَّقتْها حتى من غير أن تقرأها أو تنظرَ إليها "

" ولماذا تفعل ذلك ؟ "

" ألم أقل لك: " إذا أصبح أحدنا معروفاً لدى الآخر، زال عنا حسن الحظ "، هكذا تقول الأسطورة، والآن لاأعرف ماذا أفعل؟ "

رشفت آخر مافي فنجاني من قهوة، وغطيت الجمرات

المتوهجة في رأس النارجيلة بالقمع المعدني. في أثناء ذلك كله، كنت أفكر، وهو في صمت مطبق، وأخيراً قلت له:

" انتظر، لابد من أن تتصل بك "

ونظرت إلى ساعة يدي، ثم قلت:

" زوجتي في البيت تنتظر، وكذلك زوجتك "

نظر إلى ساعة يده، ثم نهض مدهوشاً، وهو يقول كالنادم:

" ليس من العدل أن أتأخر على منى إلى هذا الحد "

أذهلني كلامه، فقلت له، ونحن نغادر المقصف:

"عليك أن تنسى تلك الفتاة، مادمت على هذا الوفاء لمنى "

توقف، ورمقني بنظرة حادة، ثم قال غاضباً :

" ماذا يدور في بالك يا أحمد؟ لقد كنت طوال عمري على وفاء لزوجتي منى، حتى قبل أن أعرفها، منى حبي الأول، والأخير، هي المرأة الوحيدة في حياتي كلها، بل هي كل شيء في حياتي، إلى أين ذهب بك الخيال يا أحمد؟ غريب؟ بعد أربعين سنة من الصداقة يظهر أن كلاً منا لا يعرف الآخر حق المعرفة ؟ "

أحسست بالضيق، ولم أستطع قول شيء، وسرنا نحو البيت صامتين.

*

لم أكن في الواقع مصدقاً كل ما قاله عادل، أو بالأحرى لم أكن مقتنعاً، فكيف يسمح المرء لنفسه أن يدخل إلى حياته مثل هذا القلق والاضطراب والضياع وهو في الخمسين؟ وهو مستقر بعد ذلك في حياته، وله زوجة يحبها وأولاد يحبهم ووظيفة هو ناجح فيها، هل هو الملل والضجر والبحث عن التغيير بعد الاستقرار وتحقيق معظم الآمال؟ أو هو صبوة الشيخوخة؟ وإذا كان الأمر كله لا يعدو كونه

حلماً، كما يزعم هو، فهل يحتاج من كان مثله إلى الحلم؟ وهو في هذه السن وهذا النجاح؟

كل شيء في الحقيقة في حياة عادل متوازن، بالتخطيط أو المصادفة، ولدان وبنتان، وظيفة وعمل تجاري حر، شقة فخمة في المدينة، ودار صغيرة في الريف، وأصدقاء في العمل وخارجه.

وأنا وهو نسهر في كل أسبوع مرة واحدة على الأقل خارج البيت وحدنا، كما نسهر أيضاً مع زوجاتنا في البيت، سواء عندي أو عنده، وزوجته ابنة خالتي، وكانت زميلة زوجتي في الدراسة.

ولكن يبدو أن المرء لا يعرف صديقه حق المعرفة، ولو امتدت بهما الصداقة العمر كله، كما قال عادل نفسه، بل يبدو أن المرء لا يعرف نفسه، وفي كل يوم يتكشَّفُ له ما هو جديد.

ولكن سواء كنت مقتنعاً بكلامه أو غير مقتنع، فلا بد من الإقرار بواقع حاله هو، فأياً ما كان الأمر، فهو بالنسبة إليه واقع، سواء أنكرناه أم أقررناه.

*

واستيقظت في صباح اليوم التالي باكراً جداً، على غير عادتي، أيقظتني فكرة خطرت لي تتفق وطبيعة تفكيره، ثم ذهبت إلى مكتبي، وبقيت إلى الضحى وأنا أفكر، وأدرس الاحتمالات كلها، وأخيراً، وقبيل الظهيرة، نفَّذت الفكرة.

ومر يومان لم أتصل فيهما بعادل، عن قصد، خشية أن أفوه بكلمة ما، فيشك في الأمر، وكنت في أثناء اليومين شديد القلق، وقد هيأت نفسي لكل ما قد يطرأ، وفي اليوم الثالث هممت مرة أو مرتين بالاتصال به، فقد ضقت ذرعاً بقدرته على الكتمان، وعدم الاتصال بي، حتى كاد موعد انصرافي من المكتب يحين، فقد اقتربت الساعة من الثانية بعد الظهر، وإذا جرس الهاتف يرن، فأدركت على الفور أنه عادل، ورفعت السماعة، كان علي أن أكون حذراً، وألا

أقول شيئاً، ولكنه لم يذكر أي شيء، واكتفى بدعوتي إلى اللقاء مساء في مقصف المنتدى.

*

في السابعة مساء كنت في المقصف، توقعت أن أراه قد سبقني، ولكنه لم يكن هناك، فقعدت في ركننا المألوف، وأخذت أنتظر، في قلق وحيرة.

وأقبل عليَّ في نحو السابعة والربع، بقامته المديدة، وجسمه الممتلئ، ووجهه المشرق، وثمة ابتسامة خفيفة على ثغره، يلوح لمن يراه، ولا يعرفه، أنه في الأربعين، وفور جلوسه نادى النادل، وطلب فنجانين كبيرين من القهوة، ونارجيلتين، كان يتصرف برشاقة وبساطة، وكأن ليس ثمة أمر ما، حتى كدت أشك في الأمر، ولكنه كان في الحقيقة يتصرف بعفوية تامة، ومن غير افتعال.

وتبادلنا عبارات المجاملة، والسؤال عن الصحة، وقد بدا أنه لا يريد الكلام على الموضوع، فلم أستطع مجاراته إلى مثل هذا الحد، فسألته:

" هل من جديد ؟ "

وكان النادل قد أحضر القهوة، فرشف من فنجانه رشفة، ثم مدّ يده إلى جيبه، وأخرج ورقة مطوية، ورمى بها إليّ، وقال:

" خذ، انظر "

اصطنعت الدهشة وأنا في اضطراب شديد، ثم سألته:

" ما هذا ؟ "

" رسالة منها "

لم أعلق بشيء، واغتنمت حضور النادل يحمل نارجيلتين، ويضع واحدة بالقرب مني، وأخرى بالقرب منه، فوجدت في ذلك فرصة لإراحة أعصابي المشدودة، وبعد ذهاب النادل، قلت:

" وماذا تقول فيها ؟ "

" خذ ، اقرأها "

" لا، لا، اقرأها أنت "

وتناول الرسالة بأصابع ثابتة، وهو يبتسم، مشرق الوجه، وأخذ يقرأ:

" تحية الصيد والبحر، ما كنت أعرف أنك في هذه المدينة، وقد جئت إليها سائحة مع زوجي وابني، وقد اضطررت إلى البقاء فيها يومين بعد لقائك، لم أخرج فيهما من الفندق، وبالنسبة إلى حسن الحظ فأرجو أن تطمئن، لأنني لم أقرأ بطاقتك، فقد كتبت هذه الرسالة، وسلمتها إلى الخادم في الفندق، وناولته البطاقة من غير أن أراها، أو أنظر فيها، وطلبت منه أن يكتب العنوان وفق البطاقة، وأن يمزقها بعد ذلك، أرجو ألا تبحث عني، فأنا راحلة اليوم، وستبقى في حياتي، ولن أنساك".

كنت أحدق في وجهه وهو يقرأ الرسالة، كان السرور واضحاً، ولما انتهى من القراءة، تظاهرت بالانشغال في تحريك الجمرات في رأس النارجيلة، ولم أعلق بشيء، ولكنه سألني:

" ما رأيك ؟ "

" الأمر واضح "

" ماذا تعني؟ "

أحسُّ بأنني محاصر، ولا أجدُ ماأقول، وأخشى النطق بكلمة ما في غير موضعها، فتكشفني، ولكنني كنت مضطراً إلى الإجابة، فقلت:

" لقد وضَّحَتْ لكَ هي كل شيء في الرسالة، وستبقى وفية لك، وأظن أنها تشبهك في منحى تفكيرك".

تبسم وعبّر عن ارتياحه، ثم قال:

" هل تعرف، الآن أحسست بالراحة والاطمئنان، لقد عادت إلى موضعها الطبيعي في حياتي، وستبقى كذلك إلى الأبد ".

ثم طوى الرسالة، وهم بوضعها في جيبه، فقلت لـه وأنا أمسك يده التي فيها الرسالة:

" هل تركت لك من قبل أثراً مادياً يذكِّرُك بها ؟ "

" لا، كانت دائماً طيفاً، وذكرى حية في دمي، ولست بحاجة إلى أثر مادي لكي يذكِّرَني بها، فأنا لا أنساها، وهي دائماً معي ".

"إذن، أرجو أن تحرق هذه الرسالة "

" توقعت أن تطلبها لنفسك، لتحتفظ بها ذكرى لإقلاقي لك بسببها ؟ "

" لا، أبداً، أنت لم تقلقني، ولكنني أردت أن تحرقها حتى تبقى الأسطورة قائمة إذ يخشى أن تتمكن من تحقيق بعض المعرفة بها من خلال خطها، وكما تعرف فإن الخط جزء من الشخصية، وللأساطير بعد ذلك أحكامها " .

والتمعت عيناه بوميض أخاذ، ثم قال:

" أمرك غريب؟ أراك هذه الليلة يا أحمد تفكر كما أعرفك دائماً، في الليلة السابقة كنت مختلفاً كثيراً، الآن تعجبني ".

ثم مد يده بالرسالة إلى الجمرات المتوهجة في رأس النارجيلة، ووضعها فوقها، وتركها تشتعل.

تابعت احتراق الرسالة باهتمام.

ولكن ماذا يحدث لو أرسلت هي بنفسها إليه رسالة؟ أو رجعت إلى المدينة لتبحث عنه؟ وعلى كل حال، لو فعلت شيئاً من ذلك، ولا أظن أنها ستفعل، لاعتذرتُ إليه، ولأكَّدتُ لـه أنني لم ألقَ الرسالة إلا من أجله.

لم يبق من الرسالة شيء، أصبحت هباباً أسود، وهبَّتْ

نسـمة صـيفية، فـذرَّتْها، فتنـاثَرَتْ، وامتَزَجَـتْ برمـاد التبـغ المحترق، وتحركت مع النسمة أوراق شجرة التوت، فتنـاغم حفيفهـا الحـالم مـع وسوسـات المـاء المتقـاذف مـن النـافورة الناعمة، وانضمت إلى اللحن قرقرة النارجيلة.

سيـارة رؤوف

وأخيراً باع رؤوف سيارته.

لم يكن بيعها سهلاً، أحس أنه فقد جزءاً من ذاته، ولكن إذا بقيت فقد يفقد ذاته كلها.

عاتبه الجميع ولاموه، بل سخروا منه، وعنّفوه، حتى زوجته وأولاده، وربما كان هؤلاء أقسى عليه من سواهم، انهال عليه الجميع مثل دبابير النحل، وهوساكن هادئ صامت لا يتكلم، هذه هي قناعته، فقد باعها وانتهى الأمر، فليقولوا ما شاؤوا، وليفعلوا ما شاؤوا، ليتهموه بالعجز أو الخوف أو التخلف، فليقولوا ما شاؤوا،هذه هي قناعته وانتهى الأمر.

قالت له زوجته: " أنت عدوّ الحضارة "، وقالت له ابنته مها: " أنت أغضبتَ خطيبي، مع أنه لم يطلب منك المستحيل، وجعلته يطير من يدي، وأخّرت زواجي إلى ما شاء الله "، وقال له ولده أمجد: " أنت حرمتنا نزهات العطل وزيارات الأهل ".

قال في سرّه: " لا، لست عدو الحضارة ولا الآلة، أنتم تعرفون جميعاً وترون بأعينكم، بيتنا لا ينقصه شيء من الآلات والأدوات الكهربائية والأوتوماتيكية والإلكترونية، من الغسالة إلى الجلاية إلى الميكرويف فالحاسوب والهاتف

النقـال، ولـم أطيّـر سـمير ولا غيـره، ولكنـه مـراوغ، ومـن موقف صغير تبين كذبه، ماذا أقول لكم؟ ".

أصبح رؤوف في نظر الجميع متهماً، لم يبق إلا أن يعتقل ويرمى في سجن انفرادي، لو ارتكب جريمة لأشفق عليه الجميع ولزاروه في السجن، على كل حال هو الآن في سجن آخر، محاط بسياج من كلماتهم وأنظارهم، وإن كان يظن أنه سيمتلك حريته عندما يبيع السيارة.

هـو يعلـم أن الجيـران يرمقونـه مـن وراء النافـذة، ويسخرون منه، وهم يرونه ماضياً على قدميه في الصباح إلى عمله، تمنى لو أنه يسكن في الريف، ولكن حتى الريف تلوث بالسيارات مثل المدينة، ماذا يفعل؟ أصبح مثل قطعة خشب نخرة، دقت فيها عشرات المسامير.

على كل حال هو لم يهرب بثمن السيارة، ولم يضعه في حساب لـه بالمصرف، ولم يشتر به شيئاً، ولم ينفق منه قرشاً، وضعه في الخزانة تحت بصر زوجته وتصرفها، لم يقفل عليه، ولم يحجره، قال لها: " غداً ينال أمجد الشهادة الثانوية، حلمي أن يدرس الطب، قد لا يحصل على مجموع جيد، فنرسله إلى فرنسة مثلاً ليدرس الطب هناك، وهذه مها تخرجت في المعهد التجاري ولم نجد لها أي عمل، وغداً تخطب فنحتاج إلى شراء جهاز لها، أو قد يكون خطيبها فقيراً فنساعده على شراء بيت متواضع".

لم يكن يملك حجة واضحة لبيع السيارة، ولا يستطيع أن يقدم لهم تفسيراً مقنعاً، هو نفسه يحب السيارة، وقد وجد متعة كبيرة عندما قادها أول مرة بعد بضعة دروس في التدريب، ولم يكن ضد فكرة شرائها، بل كان متحمساً لها، ويتمنى صادقاً أن تظل بحوزته ولا يبيعها.

ولكن تغير كل شيء عندما أفاق ذات يوم وسأل عن ولده أمجد، فأجابته زوجته بكل هدوء: " ذهب إلى السوق، ليشتري الخبز" ردّ مدهوشاً : " ليس من عادته؟! " وردت الأم : " أنا شجعته، ليريحك "، صمت قليلاً ثم أضاف: "

ولكن ، أنا الأحبّ إلى قلبي أن يقعد وراء طاولته ويقرأ درساً، لا أريد أن يريحني فيضيع وقته، ولا تنسي أن لديه السنة امتحان شهادة ثانوية، وعليه أن يحرز مجموعاً جيداً "، ردّت: " أعرف، ولن يتأخر" وارتدى ثيابه على عجل، ثم قال لها: " أنا سألحق به بالسيارة، وأعيده إلى البيت" اعترضت سبيله قائلة: " لا، لا تكلف نفسك عناء، الآن سيرجع" وأجابها: " أي عناء هذا؟ ولماذا اشترينا السيارة؟ " قالت: " السيارة أخذها أمجد" .

صعق رؤوف، صاح غاضباً ربما أول مرة : " أمجد لا يحمل رخصة قيادة، ولا يعرف القيادة !"، وردّت الأم هذه المرة بهدوء : " ليس هناك أي مشكلة، أنت تعرف أن دوريات شرطة المرور لا تبدأ إلا بعد السابعة، ليس هناك أي دورية ولا شرطي، بعد ذلك أنا أعطيته مبلغاً كافياً، ويستطيع أن يدبر أموره "، قال لها والغصة تخنقه: " أنت تريدين تعليمه المخالفة والرشوة " وردت بهدوء: " لا مخالفة ولا رشوة، هذه هي الأمور المعروفة الآن، والمعروف عرفاً كالمشروع شرعاً ". بلع ريقه وسكت، لا جدوى من الحوار.

ولم يكن يعلم أن أمجد تدرّب على قيادة السيارة، وحصل على رخصة قيادة في الأيام العشرين التي غابها رؤوف عن البيت موفداً إلى السويد، ولم تشأ زوجته أن تخبره أنها هي التي دبرت ذلك كله، وأنها كانت تعطيه مفتاح السيارة ليتدرب عليها في ساعات الفجر الباكر حتى قبل أن يسافر إلى السويد.

والأسوأ من ذلك كله أنه حدث زميله في المؤسسة عن الموضوع، فأجابه : " ليس هناك أي مشكلة، أنا شخصياً لو كان عندي سيارة لأعطيت مفاتيحها لولدي ليذهب بها حيث يشاء، لن أحرمه منها حتى لو لم يكن معه رخصة قيادة، وبعد ذلك هل تظن أن الرخصة هي كل شيء؟ ولماذا تأخذ الأمور دائماً بجديّة؟ صدقني أنت غلطان".

وفي المقهى حدّث صديقاً لـه عن مشكلة أخرى فأجابه: " أنـت عقّدت الأمـور، لـيس هنالـك أي مشـكلة، امـرأة فـي الطريـق أشـارت لـك، إمـا أن تكـون شـريفة ومضـطرة فتوصلها بسيارتك إلى حيث تريد، وإما أن تكون غير ذلك فتأخذها أنت إلى حيث تريد وتنال منها ما تشتهي، لماذا إذن عندك سيارة؟ أنا لو كان عندي سيارة لكنت فعلت الأعاجيب ". نظر في عيني صديقه وهو يحتسي القهوة، سمع صوته يحدث نفسه : " لعل رؤوف دخل في مرحلة العجز، مع أنـه لم يبلغ الخمسين".

"أعتقد أمام ذاتـي أنـي لست مخطئاً، وهم فـي الواقـع ليسوا على خطأ، معادلة صعبة ليس من السهل حلها، مثل قطارين يندفع كل منهما نحو الآخر، ولكن لماذا هنـاك في الغرب حلّوا المعادلة؟ بل لماذا هي غير موجودة عندهم في الأساس، إذا بقيت على هذه الحال من التفكير فسوف أجن، لـيس حـلاً نهائيـاً بيعهـا، ومـع ذلـك بعتهـا." هكـذا كـان يكلـم نفسه.

ولعل أكثر ما كان يسيئه إطلاق الأبواق، كان يطل من الشرفة في الفندق على شارع فرعـي ضـيق، فرأى سيارة مصفوفة إلى جانب الرصيف يحاول سائقها الخروج بها من رتل السيارات المصفوفة مثلها، وكان بطيء الحركة، فقطع الطريق على السيارات القادمة من ورائـه، واستغرق الأمر بضـع دقـائق، واصـطفت وراء السـيارة أكثـر مـن عشـر سيارات تنتظر، ولم ترسل أي سيارة بوقها، ولم تزعق، ولم يطل أي سائق من النافذة ليلعن أو يشتم، لـم يكـن ذلـك حلمـاً بل كان واقعاً رآه في السويد، أما هنـا فلـو حصـل شـيء من مثل هذا لعلا زعيق السيارات ولسمعت الصراخ والسباب والشتائم، هنـاك لا أحد يستخدم الزمـور، أما هنـا ففـي كـل سـيارة ركبــت عشــرات الزمــامير، الجهيــر والزاعــق والصارخ والصافر، وإرسالها نوع من التسلية، تستخدم مـع الفجـر لمنـاداة صـديق فـي الـدور الرابـع، أو للإعـلان عـن الوصول، ولا بد عند إشارة المرور من فحيح الأبواق .

وحدّث مرة أحد أصدقائه عن استيائه من الذين يتجاوزون عن يمين السيارة ، فأجابه: " ولماذا لا تعد ذلك نوعاً من المرونة والذكاء؟ "، ومرة كان يضع حزام الأمان، فمرّت بجواره سيارة أجرة وقال له سائقها صارخاً بسخرية:" هل تظن نفسك في باريس؟ نحن هنا حتى في السفر لا نستعمله"، ولشد ما كان استياؤه كبيراً عندما أراد ذات يوم شراء مقبض لبدال السرعة إذ قدم له البائع مقبضاً علق فيه جرس نحاسي له جلجلة خشنة، فقال له مستنكراً: " هذا مما يعلق في رقاب البغال ولا سيما بغل الطاحون"، فرد البائع بكل عفوية:" نعم نفسه، والآن هو الشائع استخدامه، ولن تجد في السوق مقبضاً لبدال السرعة من غير هذا الجرس"، ولما رأى البائع حيرته وتردده: " قال له هذا يذكرك بأيام العربة الحنطور، هذا نسميه تراث أو كما يقولون فولكلور، أنت خذه وجربه، وإذا لم يعجبك فاخلعه ".

وحدّث مرة زوجته بهدوء، قال لها: " أنا متفق معك، السيارة ضرورية، ولكن نصف راتبي يذهب ثمناً للوقود والتصليحات" ، أجابته: " اتركها لي وأنا أنفق عليها من راتبي"، صمت، أحس بمسمار صدئ يدق في عنقه، أدرك أن أي جواب لن ينفع شيئاً، مادامت طريقة التفكير على هذا الشكل.

وفي ليلة رأس السنة دعت زوجته إخوتها وزوجاتهم وأخواتها وأزواجهن ولفيفاً من الأقارب إلى سهرة في البيت، وأقسمت عليهم ألا يأتي أحد إلا بالسيارة التي اشتراها رؤوف، وكان عليه أن يحضرهم جميعاً من بيوتهم وأن يعيدهم جميعاً إلى بيوتهم، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد تورط رؤوف وحدثهم في أثناء السهرة عن شرطي المرور الذي يأبى إلا أن يسجل في حقه مخالفة كل صباح، وكأنه يبثهم ألمه، فما كان منهم إلا أن أخذوه بالسخرية واللوم والتقريع، وهم يؤكدون خطأه وينصحون له أن يرضيه كل يوم بمبلغ بسيط كي يكف أذاه عنه، وحين

استنكر الأمر سخروا منه واتهموه بالتخلف وعدم القدرة على مجاراة العصر، وغدا هو والسيارة موضوع السهرة كلها، حتى إن أحدهم قال له: " إذا لم تكن قادراً على أن تركب السيارة فما عليك إلا أن تبيعها، أو تعطيها لابنك" وقد أجابه بعفوية: " أنا قادر الحمد لله على ركوبها وقيادتها بشرف " فما كان منهم إلا أن انفجروا جميعاً في ضحك متواصل لم يعرف له نهاية، أحس كأنه محور تدور حوله الأشياء كلها، شعر بالغثيان.

في تلك الليلة نبغت في رأسه فكرة بيعها، ولم يكن قد مضى على شرائها أكثر من ستة أشهر، وقبل أن يوقع على عقد البيع في مكتب السمسار قال للمشتري: " أنصح لك ألا تمر بها عند الدوار الشرقي، قرب بيتي، فهناك شرطي كلما رآها أبى إلا أن يسجل بها مخالفة، صدقني أنا ما بعتها إلا لأجله، كنت أتمنى لو أني كنت مخالفاً، لكن يشهد الله كان يسجل المخالفة هكذا ظلماً وعدواناً، لأني لم أدفع له رشوة "، ضحك المشتري وهو يوقع على العقد وقال له: " اطمئن، سأمر بها أمامه وأمام غيره في الدوار الشرقي والغربي، وسأخالف، ولن يسجّل أحد أي مخالفة".

انطلق من مكتب السمسار مثل طائر أفلت من سجنه، ودّ لو يعدو على الرصيف، لو يطير، لو يحلق، شعر بالنسمات الصيفية تحمله مثل فراشة.

في اليوم الذي علمت فيه الأسرة ببيع السيارة قالت مها لأمها : " زيارة أبي إلى السويد عقدته، رجع وليس في رأسه إلا الحديث عن السيارات والنظام والنظافة وإشارات المرور، قال: هم وحدهم يليق بهم أن يقودوا سيارة، الشوارع كأنها موسيقا هادئة، هناك ممرات خاصة للدراجات، وأخرى لسيارات الإسعاف، ولكل سرعة ممر خاص، لا أحد يتجاوزه، عشرون يوماً ما رأيت فيها شرطي مرور، أبنية خاصة ذات طوابق لوقوف السيارات، فيها مواقف خاصة بسيارات المعاقين، هكذا كان يتكلم ويشرح بألم، ليت المؤسسة ما أوفدته إلى السويد ولا رأى السويد"

وردّت الأم: " أنت لا تعرفين، والدك، وهو في الصغر كان كل شيء عنده بنظام وترتيب، ولا يجوز مخالفة أي شيء، ولو مقدار شعرة، هكذا أمّه ربته، أنت لا تعرفينها، هي حدثتني عنه، وكانت تباهي بذلك، ابني لا يكذب، ابني لا يسرق، كأن الناس كلهم لصوص، أنا قاسيت معها الأهوال، الله يرحمها، كل شيء يجب أن يكون في مكانه بدقة، لا أعرف ماذا أحكي لك، هو وحيدها، وكانت تعنى به أشد العناية، على كل حال، الآن أصبح والدك أكثر ليونة، آه لو رأيته قبل عشرين سنة "، وسألت مها ضاحكة: " إذن كيف أحببته، أنت نفسك قلت إنك تزوجته عن حب؟!" وتردّ الأم: " نعم، كان هذا قبل عشرين سنة، أو أكثر، لا، ليس أكثر، بل أقل من عشرين، كان والدك الأول على دفعته في قسم الهندسة الإلكترونية، وكنت معه في القسم نفسه، كان يسبقني بسنة واحدة، كان الأذكى والأكثر أناقة، أعجبتني ملاحظته الدقيقة للأمور، والأهم أعجبني إعجابه هو بي، على كل حال الآن ليس وقت هذا الحديث ".

وبعد أن وضع سمير الخاتم في إصبع مها، بأسبوع تقريباً أو عشرة أيام، كان يزورهم فيها كل يوم، وإذا هو يقول له: " عمي، سأخرج أنا ومها في جولة " ولم يجب رؤوف بشيء، ويتابع سمير قائلاً: " سيارتي عند البخاخ، أرجو أن تسمح لنا بأخذ سيارتك " واعتذر إليه رؤوف، فخرج ولم يعد.

حيثما سار يحس بالمشكلة، مثل غمامة سوداء تطارده، السيارة غابت، ولم يغب شبحها، حضورها لعنة، وغيابها لعنة.

لم يجد سوى الآذن في المؤسسة، باح له بما في نفسه، ومثل دواء مرّ تجرّع كلامه، ولكنه شعر بعده بالانتعاش. قال له :" أستاذ رؤوف، أنت مهندس كبير، ومكانتك في المؤسسة محفوظة، ولكن لا أعرف ماذا أقول؟ هل أنت من

الريف؟ "، فردّ :" لا، أنا من المدينة، فيها ولدت وفيها نشأت "، قال الآذن معلقاً: " ولكنك تحمل روح قروي بسيط طيب لم تفسده المدينة، كأن روحك روح طفل صغير" وصمت هنيهة ثم أضاف: " ولكن صدّقني أستاذ رؤوف، أنا أعاملك لا كما أعامل الآخرين، قهوتك خاصة، وفنجانك متميز، أولئك يدققون معي في الحساب، ولكنك سمح وكريم، وأنا أعرف كيف أعامل كل واحد بما يستحق "، ويصمت، ويظل رؤوف صامتاً، ويتكلم الآذن: "ولكن،اعذرني إذا قلت لك أيضاً: سوف تتعب كثيراً، لأن الواقع مختلف"، " أعرف ذلك، ولكن لا أستطيع أن أتغير" هكذا قال رؤوف في سرّه.

وعادت الغمامة تحيط به من كل جانب.

مناقير نسر جارح تنهش في خاصرته، يدفعه فينقض عليه، نهض، لم يصدق أنه حلم، سكاكين باردة تحزّ، نصال لاهبة كالنار تخز، ودّ لو يقضم الحديد، علّ الألم يسكن، ببرود قال الطبيب : " رمال صغيرة تحرّكت في الكلية، بسبب البرد " ، وأعطاه مسكّناً فنام.

في صباح آخر استيقظ، سأل عن ولده أمجد، أجابته زوجته: " ذهب إلى السوق باكراً ليشتري لنا حلوى "، حدّق فيها ثم سألها مدهوشاً :" ليس من عادته؟ وبعد ذلك ما المناسبة؟ "، أجابته بفرح غامر: "اشترى سيارة جديدة".

غيمـــة و غيمـــة

الدفء الناعس يحملني كالشذى، فأحسّ بالخدر، أشفّ، أصفو، أرتفع شيئاً فشيئاً، أنفصل عنك، أستقل، آه، ماأحلى زرقتك أيها البحر، كم أنت عظيم وكبير ورائع، حين كنت قطرة فيك كنت لاأقدّرك، كنت ضائعة في خضمك، تلطمني موجاتك، يعلوني الزبد، وهأنذا أنفصل الآن عنك، يحملني الدفء اللذيذ، فأراك أعظم وأكبر، آه، ماأكاد أنفصل عنك، حتى أحنّ إليك، ولكن يقيني أني سأرجع إليك، أجل، سأرجع بعد أن أروي العالم، هاقد بدأت رحلتي، وهأنذا أحلّق، أحلّق عالياً، أطفو على وساد من شعاع.

وأنت أيضاً رائعة أيتها الشمس المتألقة، كم كنت أحلم بك، وأتطلع إليك، أحلم باللحظة التي يحملني فيها شعاعك إلى الأثير، فأحلق، هأنذا فوق، فوق، أصعد، أصعد، يتغلغل في أعماقي دفؤك الساحر، يتسرّب في مسامي شعاعك الذهبي، أحسّ أني أشع، أحسّ أن في داخلي آلاف الألوان قد بدأت تتألق، من أصفر وأحمر وأزرق، تتماوج، تتمايز، تتداخل، تكوّن قوس قزح، يتوّج الكون كله، يجمّله.

وهناك، على الأرض، أرى الأطفال يتأملونني فرحين، يتطلعون إليّ، يلعبون تحت قوسي البهيج، آه، لو استطعت حملهم ليتأرجحوا على ألواني، لينزلقوا فوقها، ويمرحوا،

كم أنت دافئة ياشمسي، هبيني قبلتك، ارفعيني إلى الأعلى، ارفعيني، أحسّ أني بدأت أتخلص من سيولتي، هأنذا أتحوّل، أتكوّن من جديد، هأنذا ألتحم مع جاراتي، هانحن أولاء نصنع غمامة بيضاء، سحابة أمل وفرح.

- من أين أنت يا أخت قادمة ؟

- من هناك، من هذا البحر

- أهلاً بك، وأين كنت من قبل؟

- لا أعرف، يا أختي، ولكن علمت من جدتي أنها انصبت في هذا البحر من نهر عربي، بعد أن مرّت بأراض عربية، روتها، وارتوت بها، هكذا حدثتني جدتي.

- إذن، هنيئاً لك

- بماذا ؟

- بقدومك من أرض عربية، وباتجاهك أيضاً إلى أرض عربية.

- وكيف عرفت أني متجهة إلى أرض عربية؟

- ألا تحسين بريح الغرب تدفعنا إلى الشرق، هانحن فوق أرض عربية، انظري إلى السهوب الخضر، والتلال الحاضنة لأوابد حضارات عاشت هنا.

- ومتى سنهطل

- تريثي، ولا تستعجلي، دعينا نستمتع قليلاً بتحليقنا

- يبدو أنك قمت بمثل هذه الرحلة من قبل؟

- مرات، ومرات، هي دورة لا تتوقف، رائعة، ممتعة، إلاّ إذا هبطت فوق مستنقع، أو اختلطت بدخان معمل

- وهل جربت هذا ؟

- أجل، مرة، مرة واحدة، لا أنساها، دفعتني ريح عاتية إلى الغرب، وإذا أنا فوق مدخنة مصنع، خالطني سخام أسود، فانصببت مطراً حامضياً، فوق أرض مالحة، ثم دخلت في مجرى، وانصببت فوقي مخلفات معمل آخر، وجريت إلى مصب ملوث، وهناك أحاط بي العفن، وكدت

أضيع، إلى أن تسربت في شق، وانسللت خلل الرمل، فصُفّيت، ثم امتزجت بتراب نقي، فتخلصت من كل ماعلق بي، ثم دهمني سيل دافق، فدفعني إلى نهر، فعاد إليّ الألق والبهاء، ثم انصببت في المحيط.

- حديثك أقلقني، أيتها الأخت

ـ لا تقلقي، غمامتنا متجهة الآن إلى الشرق، إلى الخضرة والعذوبة والجمال.

الخضرة في السهوب تحتي تأتلق، تظللها الغمامة التي تقلني، أحسّ في الأرض شوقاً إليّ، أحسّ بي شوقاً إليها، العشب هناك قصير، ظامئ، رؤوسه تنتصب، ترتفع إلى أعلى، تتشوق إلى لقائي، آه، لو أهطل على خضرته العطشى، لو أهطل على صفحة ورقة خضراء، ناعمة، أتلون بها، تتلون بي، ويمرّ بنا طفل، يستوقفه بريقي، يقف يتأملني، ثم يحملني على كفه قطرة ندى، أبلل أصابعه، يرشفني، أحلّ في رضابه الشهي.

آه، لو أهطل هناك، أحط على سوسنة صفراء زاهية، أرتشف رحيقها، أمتزج بعبقها، ويمرّ بي شاب عاشق، يتأملني، ثم بأنامل راعشة يقطف السوسنة، يرفعني إلى وجهه البهيّ، يشمني، وهو يحلم بلقاء حبيبته، وحين يلتقيها، يغرس السوسنة في شعرها الخرنوبي، فأشم شذى شعرها، أزداد بهاء. ولكن، آه، ما هذه الأبخرة الساخنة، وما هذا النتن، وما هذه الغمغمات والهمهمات، كيف سأهبط، ماذا يجري هناك، أي ريح دفعتني؟ أين سارت بي غمامتي البيضاء النقية؟

- أين أنت يا أختاه؟

- أنا هنا بجوارك

ـ أين نحن؟ ماذا أرى هناك تحتنا، هل دفعتنا الريح إلى بلاد الغرب التي حدثتني عنها؟

- لا، نحن هنا، مازلنا فوق الشرق

ـ ولكن، ماذا أرى؟
ـ إنها إحدى المدن العربية
ـ وما هذه الأصوات؟
ـ إنهم هناك، في الأسواق، داخل الحجرات، وراء المكاتب
ـ وماذا يفعلون؟
ـ إنهم يتاجرون، يبيعون ويشترون، يرشون ويرتشون، يساومون ويغشون ويخدعون.
ـ وما سرّ هذه الأبخرة والأنفاس؟
ـ أنت لا تعرفين ياأختي، بعضهم ينم على بعض ويفسد بعضهم على بعض.

آه، مالي أحسّ بالعتمة تدلهم، والغيوم تتوافد من كل جانب، والأفق يختنق، والأرض تطويها الظلمة، حتى إني لا أكاد أرى شيئاً، ما هذا الضيق، أكاد أختنق، تنفضني رعدة، البرق يلتمع، يصعقني.

أنا أهوي، أسقط.

هل سأعود إليك أيها البحر؟

ابنتي. . واللوحـــة

عاد إلى منزله حافياً، قرّر ألا ينتعل بعد اليوم حذاء، أو يركب حافلة، فتح قلبه، استخرج من سويدائه مضغة قماش بيضاء نقية صغيرة، بحجم فم طفلته الصغيرة، ثبتها على الجدار براحة كفه، فغطت الجدار كله، أفرغ الألوان على الأرض، فتح النافذة ورمى العلب الفارغة، تابعها وهي تهوي، حاملة أرقامها وأسماءها ومعامل صنعها ذات الحروف اللاتينية، حمل كل أدوات الرسم، الكبيرة والصغيرة، ورماها من النافذة، الحامل الخشبي الذي أحضره معه من إيطالية، حمله، وألقاه من النافذة.

غمس أصابعه في الألوان، هل يرسم ثوراً بقرنين، ومصباحاً منطفئاً، هل يرسم عاريات مستحمات، هل يرسم عبلة وهي ترفع خمارها عن ثغرها لتقود الشعوب وراءها، هل يرسم ذات الابتسامة المحيرة وهي تتعامل مع الحاسوب؟

فرش الجدار بالأصفر، مد اللون بأصابعه، شكله براحة يده، عجن الرمل، تصبب عرقه، بأظافره رسم القتاد، من رئتيه المملوءتين بناطحات السحاب أرسل زفرة، فثارت عاصفة رملية، غطت الشمس بسحابة صفراء، تشبث بأطناب الخيمة ولكن الأوتاد خرجت من مغارسها، ولم يبق شيء، فطر عش الغراب التهمه الغراب، أصبح ذكرى سنوية، يرتزق بها بائعو الورود يشتريها الغراب نفسه.

نافذته ما تزال مكسورة الزجاج ، يتسرب إليه منها الهواء المكيف وفق الفصول ، يحذر طفلته الصغيرة من الدنو منها ، فتضحك، وتجيبه :

ـ وهل نسكن في قمة ناطحة سحاب؟نحن نسكن في مترو الأنفاق.

يسألها مدهوشا:

ـ أنت ما رأيت لا ناطحات السحاب ولا مترو الأنفاق؟

تجيبه:

ـ أنت حدثتني، وأنا رأيت كل في القناة الفضائية، رأيت جنيناً ذكراً في رحم أمه.

وعلى الفور يبادر فيرسم سماء صافية، وجبالاً ونهراً، يرسم سهولاً وتلالاً وأعشاباً خضراء، يرسم طيوراً تحلق، لا تهاجر، تطير فوق المكان، تحوّم، يرسم أسماكاً إقليمية تسبح في النهر، ينسى الشمس، يرسمها مثل حقل حنطة، مثل جديلة ابنته ذكاء.

يسمع قرعاً على الباب، وإذا جاره يفتح عليه خرطوماً من العواء:

ـ سقف بيتكم ليس من حديد، جدرانه ليست من حجر، لذلك يتسرب عليكم الماء من حمامنا، زوجتي تقول : عليكم أن تصلحوه.

يمد يده إلى صدره يستخرج قطعة كبيرة من كبده، يقول له:

ـ خذ صلح ما تشاء.

ويرجع، يرى الشمس على الجدار تبكي، دموعها تسري نهراً فوق النهر، تمحو الأسماك، يضع إصبعه في عين الشمس، الماء يبللها، هي دموع حقيقية، يرفعها إلى أنفه يشم رائحة الشامبو ممزوجة بعبق جسد أنثوي، يسمع صوت رعد، وقعقعة ماء، كان عليَ ألا أدفع أجرة تصليح حمام جاري، كي لا أحرم عطر حمامك الأميري، وحتى لا أحرم لوحة تتفجر منها الشمس دموعاً، اللوحة انتهت،

ستنهيها حمام جارتي، لوحة ممزوجة بالشامبو.

تفتح ابنته الشقراء الباب فتجده نائماً على الأرض بين الألوان المسكوبة على الأرض، وماء الحمام يعيد تشكيل اللوحة.

تغطيه بثلاث لوحات رجع بها من معرضه الأخير في حدائق بابل المعلقة، تلتفت إلى الجدار، تدهش لجمال اللوحة الجديدة، المطر ينسكب مدراراً، والغيوم تسح، والجبال تجري سواقي، والنهر يفيض بمائه، وثمة رعد وبرق وغيوم.

لم يرسم أبي لوحة مثلها من قبل، ستكمل هي اللوحة، ستفاجئ أباها عندما يستيقظ، ولكن أين الفرشاة؟ والألوان؟ تسرع إلى دفاترها وكتبها المدرسية، ومجلاتها الملونة، تحضر مقصاً ولاصقاً، وتبدأ العمل، ترجع إلى الوراء، لتتأمل اللوحة فتتعثر بقدم والدها، ينهض، المطر جف، وأشرقت السماء، واخضوضرت الأعشاب، ولكن يدهش، من شقّ طريقاً من الأرض إلى السماء وجعل فيها سكة قطار، من بنى تلك المدن ورفع فيها ناطحات السحاب، أين صحرائي وشمسي ؟ يلتفت إلى ابنته، يرى بين يديها المقص واللاصق وبقايا صور،لا يستطيع سؤالها عن شيء.

انتعل حذاءه وركض إلى الشارع، ثمة حافلة تهم بالإقلاع، أسرع نحوها، أمام بابها عجوز شائخ، مرّ بخاطره سؤال،همّ بطرحه على الشيخ العجوز،ولكنه تعلق بالحافلة، وهي تمضي، وترك السؤال معلقاً.

ﮋﮋ

الذبابـة والشمـس

- 1 –

الرصاص من نهاية الشارع ينهمر، والأطفال يرشقون الجند الغرباء بالحجارة.

وينحني جمال الدرة بقامته المديدة، وجبهته السمراء، على ولده محمد، يحميه بجسده، ويندفع معه إلى الجدار، يلتصقان به، ثم يجر ولده إلى كومة من الحجارة، يختبئ وراءها، يحس بها دافئة، كالأم، تحميه من الرصاص.

يلف ولده بيده اليمنى، يخبئه في خاصرته، يشدّه إليه بقوة، يودّ لو يدخله في عظام صدره، ويرفع يده الفارغة من أي شيء، يلوح بها من وراء كومة الحجارة، وهو يصيح:

- لا، لاتضربوا.

- 2 –

مـن ركـن جـانبي، تقتـرب سـيارة عسـكرية مصـفحة، تتسلل، ينـزل منهـا حـذاء عسـكري، يحمـل بـزة عسـكرية، تعلوها خوذة عسكرية، وتمتد بندقية جامدة، تستند إلـى بـاب السيارة المفتوح، وثمة جندي داخل البزة العسكرية يحتمـي بالباب، في المنظار المقرّب ترصد عينه موضع القلب فـي صدر الطفل.

سـأقتلك أيهـا الصـبي، سأصـطادك مثـل عصـفور فـي

العش، كم هو ممتع قتلك، سأرسلك إلى جنتك مبكراً، مثلما تودّ، أما أنا فلن أموت، أنا أكره الموت وأكرهك، أنا أكره كل أطفال العالم، لا، لن أموت، أنا هنا سأصنع دولة، لأني أنا من شعب اختاره إلهي، ووعده بهذه الأرض، أما أنت فيجب أن تموت، لا، لن أخسر فيك سوى رصاصة واحدة.

وتضغط على الزناد إصبع جندي محشو داخل تلك البزة العسكرية، وهو يلوك في فمه اللبان.

– 3 -

محمد الدرة ، ابن الثانية عشرة، يقول لأبيه :

ـ أحسّ بشيء دخل صدري، فتح قلبي، لتدخل فلسطين كلها، غزة، يافا، حيفا، رام الله، القدس، أحسّ بقلبي ماعاد يتسع، كالنار قلبي كالثلج، أنا .. فلسطين...

– 4 -

جمال الدرة المختبئ وراء كومة الحجارة يمسح الدم عن صدر ولده النائم في حضنه كالعصفور، يرفع يده عالياً، يصيح:

- هذا ولدي، بين يديّ، في حضني مات، مات الولد، مات الولد، وأنت أيها الجندي، آه لو تعرف كم هو صعب أن يموت ولدك بين يديك؟ لقد رأيتك وأنت تصوب إليه بندقيتك، وأشرت إليك بيدي، وصحت: لا، لاتضرب، ولكنك تجاهلتني، ألست أباً؟ أليس لك ولد؟ ألست ابناً لأب؟ إذا كان لك ولد، فأتمنى ألاّ يموت بين يديك.

– 5 -

ويفتر ثغر الجندي المحشو داخل البزة العسكرية، يضع إصبعه ثانية على الزناد، وهو يلوك في فمه اللبان.

أما أنت أيها الأب، يامن أنجبت ذلك الولد، فسأرسل إليك بضع طلقات، لن أقتلك، سأتركك تتسلى برصاصات

ثمان أو تسع، تستقر في حوضك، تشلّ بها، حتى لاتنجب ولداً آخر، يجب أن تصبح مثلي، من غير ذرية ولا ولد.

يضغط على الزناد، ويبصق.

- 6 –

إني أراك أيها الجندي الغريب، كل هذا السلاح لايمكن أن يخفي عني عينيك، إني أراك تسدّد الآن بندقيتك إليّ، سدّد، إني أرى عينيك الفارغتين، سدّد، وامضغ من اللبان ما شئت، وابصق، فبصاقك لن يسقط إلا على حذائك، فهذه الأرض المقدسة لن تدنّسها لا أنت ولا سيارتك العسكرية المصفحة، ورصاصاتك أراها تقترب مني، ستخترقني، ولكنها لن تخترق سمائي ولا أرضي.

أراك الآن أيها الجندي الغريب وقد صغرت، صرت ذبابة سوداء صغيرة، وأرى وراءك الأفق الواسع، والأرض الواسعة، والسماء الواسعة، وثمة شمس جديدة تشرق.

- 7 –

في صباح يوم آخر، ينطلق أطفال آخرون من بيوتهم الجديدة، بينهم طفل آخر اسمه أيضاً محمد الدرة، يحلّقون كالعصافير، تحت سماء صافية، شمسها ساطعة، ذاهبين آمنين إلى مدارس جديدة، يرفرف فوقها علم فلسطين.

ꕥꕥ

رصاصة تودّ أن ترتد

- 1 –

جند غرباء بكامل سلاحهم، يختبئون في سياراتهم العسكرية المصفحة، وهي تسد أول الطريق في شارع عتيق من شوارع القدس العربية، تغلق المعابر.

وصبية صغار يخرجون من مدارسهم، حقائبهم الجلدية على ظهورهم، يريدون أن يمضوا إلى بيوتهم، عبر أزقة مدينتهم.

ينزل بعض الجند من سياراتهم المصفحة، يقفون وراء أبوابها المفتوحة، يحتمون بها، لايبتعدون عنها، الخوذات على رؤوسهم، الواقيات الزجاجية على وجوههم، يمدون بنادقهم المزودة بمناظير مقربة، البنادق محشوات برصاص حي، الأصابع على الزناد.

الأطفال لايرهبون، فهم في وطنهم، فوق أرضهم، في أزقة مدينتهم، بين جدران بيوتهم، الأطفال ينحنون على الأرض، يلتقطون منها حجارة، الحجارة تندفع من أيديهم حاملة دفء اليد ونبض القلب واسم الوطن: فلسطين.

وفي مقابل الحجارة ينهمر الرصاص.

– 2 -

الحجارة التي يقذفها الأطفال تخاطب الجند الغرباء، تقول لهم:

ـ نحن لا نريد أن نقتلكم أيها الجند الغرباء، نحن نعرف أننا لايمكن أن نصيبكم، لأن أيدي الأطفال الصغيرة هي التي تقذفنا عليكم، نحن لانريد أن نقتلكم، نحن لانحب القتل، نحن حجارة للبناء لا للقتل، والأطفال الذين يقذفوننا عليكم مثلنا، هم أبناء هذه الأرض، لايملكون إرادة القتل، ولا يحبون القتل، هم فقط يريدون أن يقولوا لكم هذه أرضنا، وأنتم عنها غرباء، فاخرجوا وارحلوا، واتركوا الأرض لأهلها، لأبنائها، لشعبها.

أيها الجند الغرباء، إذا لم يقذفنا الأطفال، فنحن سننفجر من تحت الأقدام، وننقذف في وجوهكم.

– 3 -

جندي غريب، محشو داخل بزة عسكرية يحتمي وراء باب سيارة عسكرية مصفحة، عينه في المنظار المقرب، يرصد صدر طفل صغير، يضغط على الزناد، وهو يعلك اللبان.

– 4 -

الهواء يلفع الرصاصة المنطلقة كالنار، يقاومها، يحاول إبطاءها، وإطفاءها، الرصاصة تكلم الطفل:

ـ آهٍ، ليتني ماانطلقت، ليتني أبطئ قليلاً، ليت الهواء يوقفني، كم أتمنى أن أتحاشاك أيها الطفل، داخل البندقية ماكنت أراك، وحين انطلقت، لم أكن أعلم أني موجهة إليك،

ليست إرادتي أنا، إنما هي إرادة ذلك الجندي، هو الذي أطلقني، هو الذي يحب القتل، أنا لا أملك إرادتي، ما ذنبك أيها الطفل؟ ليتني أصطدم بحجرة ولا أوذيك، ليتني أرتد إلى عين ذلك الجندي، ولكن، آه، اعذرني.

– 5 -

في صباح يوم آخر، ينطلق أطفال آخرون من بيوتهم الجديدة، يحلقون كالعصافير في شوارع القدس العربية، تحت سماء صافية، شمسها ساطعة، ذاهبين إلى مدارس جديدة، يرفرف فوقها علم فلسطين.

زيارة.. بصحبة المدير

فتحت لـه البـاب والصـابون علـى ذقنـي، قدتـه إلـى غرفـة الضيوف، غبت عنه بضع دقائق، ثـم عدت إليـه وأنـا أنشـف وجهي، وأعتذر لتأخري. بـادرني بدعوتـه لـي للخـروج معـه في زيارة إلى المخبز الآلي، وهـي الزيـارة التـي كنـت أمنّـي النفس بهـا منـذ تعيينـه قبـل عـامين فـي المخبـز مشـرفاً علـى خطـوط الإنتـاج الحديثـة، التـي طالمـا حـدثني عنهـا وعـن تطورهــا، وكــان دائمــاً يؤجــل الزيــارة، ولــذلك قلــت لـــه مدهوشاً:

ـ دعوة مفاجئة!

ـ هيا عجل، السيارة تحت، بانتظارنا.

ـ وهل اشتريت سيارة؟

ـ لا

ـ أي سيارة إذن ؟

ـ سيارة مدير المخبز.

ـ وكيف أعارك سيارته؟

ـ تسلمنا إدارة المخبز.

ـ متى؟

ـ منذ شهرين تقريباً

ـ الآن عرفت سرّ تأخرك عن زيارتي

ومددت إليه يدي مصافحاً، وأنا أقول:

ـ على كل حال، مبارك، حضرة المدير.

نهض، شدّ أزرار سترته، اصطنع الجد، ثم صافحني بأطراف أصابعه، ونبس بهدوء:

ــ شكراً، طبعاً هذا هو سبب التأخر، فقد زادت مسؤولياتي، بل هناك سبب آخر وهو سبب وجيه جداً حتى للانقطاع عن الزيارة.

ـ وما هو حضرة المدير المحترم؟

ـ هو عدم إرسالك إلي طاقات الورد.

ـ رائع، رائع جداً تمثيلك دور المدير.

ـ ما هذا الكلام ؟ أنا لا أمثل، أنا مدير، ومدير حقيقي.

قلت لـه بجد مصطنع:

ــ أنا آسف حضرة المدير، صدقني لو علمت أنك انقلبت إلى مدير لأرسلت إليك مرج ورد، ولكن أرجو أن تسمح لي الآن ببضع دقائق.

ـ هل ستتركني وتذهب لتشتري طاقة ورد؟

ـ لا، سأرتدي ثيابي، وأعد لك فنجان قهوة.

ـ إما القهوة أو الثياب، فالسائق ينتظر.

ناولته مجلة ليتسلى بها وأسرعت إلى غرفتي أرتدي ثيابي.

*

بعد تخرجه في كلية الهندسة قسم الميكانيك قبل عامين عين مشرفاً على خطوط الإنتاج، سامر الأول على دفعته، هو صديق قديم منذ أيام المرحلة الثانوية، ذكي ومثقف، ربما قرأ من القصص والروايات أكثر مما قرأت، أثق بذوقه، كثيراً ما يقترح علي تعديل نهاية قصة أو حذف موقف أو تغيير اسم البطل، وهو مبدع في مجال عمله، كان يحدثني دائماً عن الخطوط الآلية الحديثة، وإنتاجها الخبز

المتميز.

مرة تعطلت القطاعة في أحد خطوط الإنتاج، هكذا حدثني، فاقترح المدير رفع كتاب إلى المدير العام يطلب فيه الموافقة على مراسلة الشركة الألمانية المصنعة للخط كي ترسل خبيراً من طرفها لإصلاحها ، ولكن سامر طلب من المدير أن يأذن لـه بفك القطاعة للنظر في طبيعة العطل، وبعد تردد وافق المدير، وفك سامر القطاعة وتبين لـه أن أحد الأقراص المسننة مكسور، واقترح شراء مسنن مماثل من تصنيع محلي، وبعد جدال طويل وافق المدير، ونجح سامر في إصلاحها.

لم أدهش لإسناد إدارة المخبز إليه، فأنا أعرفه جاداً مخلصاً، حدثني مرة أنه رأى في مستودع المخبز خطاً قديماً للإنتاج مفككاً، فعرض على المدير تجميعه، وترميمه بقطع من تصنيع محلي، ونجح في إعادة الخط إلى العمل، المهم أن سامر جدير حقيقة بمنصب المدير.

والذي يعجبني فيه أكثر هو صدقه في حبه لمها، أول ما حدثني عنها وهو في سنة التخرج قلت هو مجرد إعجاب عابر أو علاقة زمالة في الكلية، لن يلبث أن يتركها بعد التخرج ليتزوج صبية تخطبها لـه أمه، ولكن تبين لي صدقه في حبه، عامان مرا بعد التخرج، وسنة من قبل، ثلاثة أعوام وهو ما يزال يحبها وينتظر الفرصة المناسبة لخطبتها، من يحب حقيقة بصدق يحب عمله وجيرانه والناس كافة يحب الحياة كلها، هكذا قال لي مرة، ثم أضاف : "لأجل مها أنا أعمل ولأجلها أنا مستعد للتضحية بكل شيء، هي الأمل والهدف في حياتي كلها."

*

في الطريق إلى المخبز كان سامر يتكلم:

- فور تعييني مديراً بدأت بتغيير كل شيء، نقلت مكتبي إلى بناء ملحق بعيد عن رواق المخبز، لأكون بعيداً عن حرارة الفرن وضجيج خطوط الإنتاج، وهناك قطعة أرض صغيرة أمام المبنى مهملة ففرزت اثنين من العمال

في المخبز لإصلاحها وزراعتها بالورود ورعايتها، غداً أطل عليها من نافذة مكتبي فأرى الجنة، وبالمناسبة، نقلت مكتبي ولكن لم أنقل الأثاث والفرش، أخذت على الفور موافقة المدير العام وشكلت لجنة شراء وملأت المكتب بفرش جديد من النوع الأول، ومكيف الهواء كان أول قطعة تدخل المكتب، مكتب المدير السابق داخل رواق المخبز، تجده في الصيف مثل جهنم، تركته هو وفرشه وأثاثه لمساعدي فرآه جنة.

*

ومن بعيد لاح لي باب حديدي كبير، فأشار إليه صديقي المدير، وقال:

- هذا هو المخبز.

و قبيل وصولنا إليه أرسل السائق بوق السيارة فخرج على الفور حارس عجوز من وراء الباب وفتحه، وعند دخول السيارة التفت صديقي إلى الحارس وقال له:

- ياعبدو، لا تتأخر مرة ثانية في فتح الباب، وإلا حوّلتك إلى حارس ليلي.

رفع الحارس يده إلى رأسه محيياً تحية شبه عسكرية، وهو يقول:

- أمرك سيدي.

مال علي صديقي المدير وهمس والسائق يقود السيارة داخل فناء المخبز:

- غداً لن أنتظر الحارس ليفتح لي الباب، سأضع جهاز تحكم يفتحه عن بعد.

ولدى نزولنا من السيارة التفت السائق إلى صديقي المدير، وقال له:

- سيدي، هناك ارتفاع في حرارة المحرك، سآخذ

السيارة إلى التصليح.

ويرد صديقي المدير:

ـ لا، اتركها، تقدمت إلى المدير العام بطلب سيارة وجاء الرد بالموافقة، بعد يومين تقود سيارة لانسر جديدة.

والتفت إليّ يتابع حديثه ونحن نبتعد عن السيارة ليقول:

ـ سأترك السيارة لمساعدي، وعندما تصبح على عهدته سيكون هو المسؤول عن كل أعطالها، وسيطلب مني عندئذ الموافقة على تصليحها، لماذا أصلحها له أنا الآن.

*

أمام باب الرواق قال لي:

ـ تفضل هذا هو الرواق، كان اسمه الهنكار، أنت نصحت لي أن أسميه الرواق، اسأل كل العمال، لن تجد أي عامل يقول الهنكار، بفضلك أصبح اسمه الرواق، فهل روَّقت؟

نفحني عبق الخبز الشهي الناضج، وغمرني دفء لذيذ، وكان دخولنا عند نهاية الخط، حيث تتهادى أرغفة الخبز متألقة على سير من القماش أمام عاملات يلتقطن الأرغفة، يعددنها ثم يضعنها في أكياس.

قال لي صديقي المدير:

ـ سوف نمضي إلى عمق الرواق لنرى خط الإنتاج من بدايته، وسوف أشرح لك مراحل الوصول إلى الرغيف بدءاً من الدقيق.

ـ ولكن سنسير على مهل، لألقي نظرة سريعة على مراحل إنضاج الرغيف بدءاً من النهاية.

وسرنا معاً، بجوار سير التهوية وهو يحمل أرغفة الخبز الساخنة، ويمر بها على طول ستة أمتار، وهي تنتقل من سير إلى سير، عبر خمس طبقات، كي تبرد.

وراء السير عاملة في نحو الأربعين تمضغ لقمة،

وتراقب الأرغفة عند انتقالها من طبقة إلى طبقة، لتحمل ما قد يسقط على الأرض من أرغفة، توقفت عن المضغ عندما اقتربنا منها، نظرت إلى الأرض، أبحث عما حول العاملة، هل ثمة صحن فيه شيء من طعام؟ أعدت النظر إلى يديها، في إحداها بقية من رغيف، وليس في الأخرى سوى فجلة صغيرة.

*

ـ هذه هي غرفة الإنضاج التي كنت أحدثك عنها وكنت تظنها مثل التنور.

غرفة معدنية كبيرة، تدخلها رقائق العجين من طرف على سير معدني، لتجتاز في داخلها صبيب نار مشتعلة، فتنتفخ رقائق العجين وهي تكتوي بالنار، ثم تخرج من الطرف الآخر مورّدة ، ووهج النار ما يزال يتقد فيها، كأنها قباب من ذهب تنعكس عليها أشعة الشمس الغاربة.

أحس بدفء لذيذ، ولكن كيف سيكون حال هؤلاء العمال البائسين في حر تموز اللاهب؟

*

بدأ الضجيج يتسرب إليّ وأنا أتجاوز غرفة الإنضاج، وصديقي المدير إلى جانبي.

الرقاقة تبسط قطع العجين فتحيلها إلى شرائح، ثم إلى رقائق، يحملها سير قماشي طويل للتهوية وينتقل بها على خمس طبقات كي يرتاح العجين قبل الدخول إلى غرفة الإنضاج، وثمة عامل عجوز يقف وراء السير، قصير، هزيل جداً، محدودب الظهر، وجنتاه غائرتان، مجرد جلد وعظام، كأنه صائم طوال العمر، بيده عصا طويلة، يلتقط الشرائح التي تلتوي أو تتجعد في أثناء انتقالها من طبقة إلى طبقة على السير القماشي، يرفعها برشاقة بطرف العصا، يستلها ويرميها في صندوق إلى جانبه.

صديقي المدير يرفع صوته صائحاً بالعجوز:
- لا تتأخر عن إفراغ الصندوق في القطاعة كل خمس دقائق قبل أن يحمض العجين حتى يرق مرة ثانية.
ويرفع العجوز يده بتحية شبه عسكرية وهو يقول:
- أمرك سيدي.

ويقول لي صديقي المدير:
- اعذرني لرفع صوتي، فهو ضعيف السمع.
- يبدو أن كل العمال عندك ضعاف السمع، أو لعلهم أصيبوا بضعف في السمع خلال الشهرين الأخيرين.
- أنت لا تعرف، لا بد من السيطرة عليهم، لاينفع معهم إلا الحزم، ولاسيما في أول عملي، بعد سنة أو سنتين قد ألين قليلاً.

*

لم يكن سامر في يوم من الأيام أميراً ولا ابن أمير، ولم يكن إقطاعياً ولا ابن إقطاعي، أبوه نجار، متوسط الحال، ليس فقيراً ولا غنياً، صاحب محل متواضع فيه ثلاثة عمال لا أكثر، زرته عدة مرات فرأيته حسن التعامل مع العمال، سامر الولد الأوسط بين خمسة إخوة، قبله أخوان اثنان، وبعده أختان اثنتان، حرص أبوه على تعليم أولاده كلهم، ليس في حياة سامر أي مشكلة، لا أكاد أصدق ما أراه؟

*

القطاعة تقطع العجين، تحيله إلى كتل صغيرة، الكتل تسقط في مجموعة من التجويفات المقعرة، المجموعة تهتز في حركة ارتجاجية، فتتحول القطع إلى كرات، يقترب منا شاب في الثلاثين، يقف وراء القطاعة، ولا يتقدم، يرفع يده بتحية شبه عسكرية، يرفع صديقي صوته صائحاً به:
- عينك على القطّاعة، لا تغفل عنها لحظة.
ويردّ الشاب:

ـ أمرك سيدي.

يلتفت إلي صديقي قائلاً:

ـ هذه هي القطاعة التي تعطلت ثم صلحتها أنا بنفسي، أظن حدثتك عنها من قبل؟

وأرد :

ـ نعم

ويضيف صديقي:

ـ هذا الشاب الذي رأيته هو مهندس جديد عين في المخبز، أول تعيينه أبدى حماسة كبيرة، يريد أن يعمل كل شيء، كأنه كبير المهندسين، قلت له: هذه القطاعة أهم جزء في الخط، ابق بجوارها ولا تغادرها، أنت اختصاصك القطاعة، والرجل انقطع من يومها إلى القطاعة.

*

لم يكن سامر هكذا أبداً، هو ذكي، من غير شك، ولكن، هل يعقل أن تغيره الإدارة هكذا خلال شهرين؟ لا أكاد أصدق.

*

العجانة حلة كبيرة، في وسطها ذراع معدنية تتحرك، الحلة تدور، ولها ضجيج كبير، وعامل شاب في قميص رقيق قدماه حافيتان، يدخل حاملاً كيس دقيق، فوهته مفتوحة، يفرغه في العجانة.

صديقي المدير يتكلم وهو يشير إلى أنبوب غليظ هابط من السقف إلى قرب العجانة:

ـ هناك مصب آلي نازل كما ترى من مستودعات الدقيق إلى العجانة مباشرة، ولكنه معطل، أجَّلنا إصلاحه الآن، تصليحه مكلف قليلاً، لذلك نحن نعتمد على جهود الشباب في نقل الدقيق من المستودع إلى العجانة، الأمر

سهل، والشباب معتادون هنا على هذا العمل لأن هذا المصب جديد عمره سنة واحدة فقط، والآن سنرجع لأحدثك عن خط الإنتاج بالتفصيل، ما رأيك؟.

أجبته:

ـ أفضِّل أن نصعد إلى مكتبك، فقد كونت فكرة كافية عن طبيعة العمل.

*

في مكتبه الواسع المطل على فناء المخبز بعيداً عن رواق الإنتاج قعدنا متجاورين على أريكة فاخرة نحتسي القهوة، مكتب المدير العام من غير شك ليس مثله، بل ربما مكتب الوزير نفسه.

خشيت أن يحدثني ثانية عن المعمل والمكتب ، لذلك بادرته سائلاً:

ـ ما أخبار مها؟ لاشك أنها الآن سعيدة بتسلمك منصب الإدارة ، المرأة تحب المناصب، أظن آن الأوان لتتقدم لخطبتها، فأنت الآن مدير قدّ الدنيا كلها، أم هل ستنتظر حتى تصبح المدير العام؟

ردّ بانفعال:

ـ ليتك ما سألتني، أنا نسيتها إلى الأبد، غداً يصبح عندي هنا في المخبز أكثر من عشرين مها،سأفتح باب التعاقد مع عاملات صبايا، لا كالعاملات في عدِّ الأرغفة.

ـ لا أتوقع منك هذا؟

ـ ما دمت قد أصبحت المدير فتوقع مني كل شيء.

ـ لا أصدق هذا الكلام، هل أساءت لك مها في شيء؟

يصمت هنيهة، يرسل زفرة طويلة ثم يتكلم:

ـ كلمة أساءت غير كافية، بعد ثلاث سنوات من الحب، أنت تعرف، هدمت كل شيء.

ـ وكيف؟

ـ تقدمت إلى خطبتها فرفضت.

ـ غير معقول، لا أصدق.
ـ صدّق، المعقول صار غير معقول، وغير المعقول صار هو المعقول.
ـ لم تخبرني، هل كان ذلك قبل تسلمك منصب المدير؟
ـ بل بعد تسلمي إدارة المخبز، تقدمت إلى خطبتها، للأسف، وأنا حضرة المدير، قال لي أبوها: وإذا كنت المدير فماذا يعني هذا؟ السيارة لن تدوم والمنصب لن يدوم، أنا أريد تأمين مستقبل ابنتي؟ قلت له : أنا مهندس وهي مهندسة ، نبني المستقبل معاً بالتعاون، أجابني: أنا لا أريد لابنتي أن تشقى، انظر أنا مثلك عامل في شركة النسيج منذ خمسة وثلاثين عاماً ، هل استطعت أن أؤمن المستقبل؟ لا تقل لي إنك مهندس ومدير، كله سواء، راتبك لا يزيد كثيراً على راتبي.
ـ هناك سبب، هل تقدم إلى خطبتها تاجر؟
ـ نعم، هناك سبب.
ـ وما هو؟
ـ التقيتها صباح اليوم التالي، فقالت: راتبك وراتبي لن يفعلا أي شيء، أنا حصلت على عقد عمل في الخليج، فإذا أردت أن تسافر معي فحاول الحصول مثلي على عقد عمل.

*

بعد أقل من شهر رن الهاتف، رفعت السماعة، جاءني صوت سامر، واضح أن الاتصال من الخارج، سألته:
ـ أين أنت؟
أجابني:
ـ لا تسألني أين أنا فقط، قل أين أنا ومع من؟
ـ أين أنت ومع من؟
ـ أنا هنا في الخليج مع مها.

ـ والعمل؟
ـ مهندس في قسم التبريد والتكييف في مشفى خاص.
ـ ومها؟
ـ رئيسة قسم الصيانة، هي التي وفرت لي عقد العمل.
ـ وكيف معاملتك للعمال؟
ـ أنا سامر الأول الذي تعرفه، وأنت ما مشروعاتك؟
أصمت قليلاً ثم أجيب:
ـ عندي مشروع قصة، أود أن تطلع عليها كالعادة.
ـ أرسلها إليّ بالبريد الإلكتروني، ما عنوانها؟
ـ زيارة بصحبة المدير.
يضحك عالياً ثم يقول :
ـ لا ، اجعله الرحيل من أجل مها.

الحديقـــــة

في الصباح النقي

انطلق خالد مسروراً مع أمه وأبيه إلى الحديقة، السماء كوجـه طفـل، والشـمس كبسـمة صـديق فـي وجـه صـديق، والأشجار تعطف مثل أم، والمروج الخضراء تمتد أمامه فاتحـة ذراعيهـا مرحبـة، والأزهـار متنـاثرة كأطفـال يتراكضون .

هو يوم عطلة من أيام الربيع الجميلة.

عند بـاب الحديقـة اشـترى خـالد كـرة كبيـرة، واشـترى أبوه جريدة الصباح، واختارت الأم مجلة نسائية.

فور دخولهم الحديقة فوجئ خالد بالحارس وهو يمسك بولد من أذنـه ويعركها بشدة، والولـد يتلوى بين يديـه، وقد التف من حولهم الأولاد والرجال.

أبـو خـالد بقامتـه المديـدة وخطواتـه الواثقـة يتجـه نحـو الحارس، يمسك يده، وبصوت هادئ يقول له:

ـ أنا أشفع له، قل لي ماذا فعل؟

ويرفع الحارس صوته بالجواب غاضباً:

ـ قطف وردة، أنـا أعرفـه، هو ولـد شرير، لـص مثـل باقي الأولاد، يقطف الورد ليبيعه.

ويرد الولد متوسلاً:

ـ والله يا عم هذه أول مرة آتي فيها إلى الحديقة.

الحارس سمين قصير مثل كرة، يداه قصيرتان غليظتان، رأسه صغير مفلطح مثل حبة الفاصولياء، عيناه صغيرتان باهتتان، فيهما حَوَل، كأنه ينظر في نقطة واحدة، وهو ما يزال يفرك أذن الولد، والولد يتلوى بين يديه مثل قميص عتيق مهترئ.

ويتكلم أبو خالد بهدوء:

ـ اتركه هذه المرة لأجلي، لن يعود لمثلها، يبدو ولداً مهذباً، أنا أكفله.

ويتركه الحارس، وهو يلهث من الانفعال والغضب، صارخاً:

ـ والله لو رأيته مرة ثانية لسلمته إلى الشرطة.

ويؤكد والد خالد بلهجة واثقة:

ـ لا، لن يعود إلى مثلها، لو كان من الأشقياء لهرب قبل أن تمسك به.

ويربت والد خالد على رأس الولد، ويقول له:

ـ لا تعد إلى مثلها.

ينفض الولد كتفيه، يرفع رأسه، يتنفس، كغريق خرج من بركة آسنة، تبدو عليه ملامح الذكاء والأدب، وهو يتكلم، على الرغم من الانفعال والألم:

ـ شكراً يا عم، والله هذه أول مرة آتي فيها إلى الحديقة وحدي، كل مرة آتي مع أبي وأمي وإخوتي، لا أعرف كيف ملت على الوردة وقطفتها، صدقني ليس عن قصد الإيذاء.

وتتكلم أم خالد:

ـ الحارس يا ولدي يقوم بواجبه، ولو أن كل ولد دخل الحديقة قطف وردة لما بقي فيها ورد، والحديقة يأوي إليها فعلاً بعض الأولاد الأشرار، وهو لا يعرفك.

ويتكلم الولد:

ـ ولكن عليه ألا يغدر بي، هو ناداني، كنت أظنه يريد شيئاً، وإذا هو فجأة يشد أذني، يمكنه أن ينبهني، أن يمنعني، لا أن يشد أذني، على كل حال شكراً، أنا راجع إلى البيت، لن أدخل الحديقة بعد اليوم.

ويتكلم أبو خالد:

ـ لا يا ولدي، أنت جئت إلى الحديقة في يوم العطلة لتتسلى، لا يجوز أن ترجع إلى البيت كئيباً، قل لي ما اسمك؟

ويرد الولد وقد بدا أكثر ارتياحاً:

ـ عماد.

ويضع أبو خالد يده على كتف عماد:

ـ لا يا عماد، ستلعب مع ولدي خالد، هيا يا خالد سلم على صديقك عماد، وانطلقا لتلعبا معاً.

ويتكلم خالد:

ـ إذا كنت يا عماد سترجع إلى البيت، فأنا سأرجع أيضاً.

ويمضي عماد مع خالد وأبويه، وصوت الحارس وراءهما ما يزال يجعجع غاضباً، مثل دجاجة.

وعلى مرج أخضر منبسط ينطلق خالد وعماد ليلعبا بالكرة.

خالد أطول من عماد قليلاً، أشقر الشعر، أزرق العينين، ناحل، يشبه والده الشبه كله، وعماد ميال إلى السمرة، أسود الشعر، أسود العينين، يبدو أصغر من خالد قليلاً.

ـ أنا في الصف الثاني الإعدادي، في أي صف أنت يا عماد؟

ـ أولاً شكراً لك ولوالديك، يا خالد، أنا في الصف الأول

الإعدادي.

هكذا يتحاور خالد وعماد، قبل أن يلعبا بالكرة.

وسرعان ما ينضم إليهما أولاد آخرون، يتعارفون، فإذا هم باقة ورد، هذا سمير وذاك بسّام وذلك أمجد، وكلهم في أعمار متقاربة، سمير في الحادية عشرة، في الحلقة الأخيرة من المرحلة الابتدائية، بسام أخوه، أصغر منه بعامين، أمجد في الصف الأول الإعدادي، هو في عمر عماد، خالد هو الأكبر في المجموعة، هو في الثانية عشرة، في الصف الثاني الإعدادي.

فوق المرج الأخضر يلعبون، يتقاذفون الكرة مثل فراشات، ينادي بعضهم بعضاً، أصواتهم تمازج أصوات العصافير وهي تزقزق فوق الأغصان الوارفة التي تشفق عليهم بظلالها الناعسة، والورود تنفحهم شذاها العبق فتنعش أرواحهم.

ويقترب منهم ولد غريب، يقف قريباً منهم يحدق فيهم، مثل قنفذ، يتنبه إليه خالد، يهم بدعوته إلى مشاركتهم في اللعب، ولكنه يلحظ نظرته غير المريحة، يحس أنه ينوي شيئاً، ولكنه لا يستطيع أن يخمن ماهو؟ ويمضي خالد في اللعب مع أصحابه، وفجأة يقذف الولد الغريب الكرة بقدمه عالياً، ثم يولي هارباً.

يغضب عماد، يهم باللحاق بالولد الشرير، ولكن خالد يمنعه، ويقول له:

ـ اتركه يا عماد، علمني أبي ألاّ نردّ الإساءة بمثلها.

وتعلو الكرة عالياً، فوق رؤوس الأشجار، ثم تحط على شجرة، وتعلق فوق أحد الأغصان، يشعر الأطفال للوهلة الأولى بالاكتئاب، ثمة مشكلة، يحس خالد أنه هو الأكبر فيهم، هو في الثانية عشرة، هو مطالب بصعود الشجرة لإنزال الكرة، وهي بعد ذلك كرته، أسرع إلى الشجرة، همَّ بتسلقها، وإذا عماد يستوقفه قائلاً:

ـ انتظر يا خالد، أنا سأتسلق الشجرة لإنزالها.

ويرد خالد بهدوء:

ـ لا يا عماد، لا أنا ولا أنت، علينا أن نشاور أبي أولاً.

ويسرع خالد إلى أبيه:

ـ أبي ، هل تأذن لي بتسلق الشجرة لإنزال الكرة.

ويلحق به عماد:

ـ اسمح لي يا عم أن أتسلق الشجرة بدلاً من خالد.

وينظر إليهما والد خالد نظرة لوم وعتاب، فيتكلم خالد بهدوء:

ـ لست أنا يا أبي، ولا أحد من أولئك الأصدقاء، هو ولد شرير، مرَّ بنا فقذف الكرة عالياً.

ويتكلم عماد بثقة:

ـ ما كنت يا عم لأخافه، كنت سألحق به، ولكن خالد منعني.

ويتكلم والد خالد:

ـ لا، لا يجوز أن نتصرف كما يتصرف الأشرار.

وتتكلم الأم:

ـ اترك الكرة، يا خالد، ستنزل من تلقاء نفسها.

ويتكلم الأب بقوة:

ـ لا، فليحاول تسلق الشجرة، ولينتبه جيداً، أريده بطلاً.

وقبل أن يمضي خالد وعماد يسأل والد خالد ابنه:

ـ إذا رأيت ذلك الولد ثانية، فهل تعرفه يا ولدي؟

وعلى الفور يرد خالد:

ـ نعم يا أبي،هو أكبر مني، ولكنه أقصر، بدين، يلبس قميصاً أحمر، شعره أسود كثيف وأشعث.

ويضيف عماد:

ـ الآن تـذكرت، أظنـه يبيـع أوراق النصـيب، عنـدما ركض رأيت في يده أوراقاً، هي أوراق النصيب.

ويعلق والد خالد:

ـ شكراً لحسن الملاحظة عند كل منكما، يجب أن نكون دائمـاً يقظـين، والآن هيـا يـا خالـد، تسـلق الشـجرة، وكـن حذراً.

أخذ خالد بتسلق الشـجرة، الأغصـان جميلـة، وهو يشد عليها قبضته، يثبت فوقها قدمه، نظر إلى الأولاد من فوق، نظـر إلـى الحديقـة كلهـا، أحاطهـا بنظرتـه، كـم هـي واسـعة وجميلة؟ وزلت قدمه، خفق قلبه، نـال منـه الرعب، تشبث بغصن قريب، أصابعه تعبت، غصـن رفيـع أصـاب ذراعـه، أحس بجرح فـي ذراعـه، شـعر بشـيء من الألـم، الكرة مـا تزال بعيدة هل يرجع؟ عيون الأولاد تحت الشجرة شاخصـة إليـه ، وجـوههم مرفوعـة نحـوه، ولاسـيما عمـاد، ينادونـه، يصيحون به يشيرون إليه:

ـ هي هناك.

ـ فوق ذلك الغصن.

ـ أصبحت قريباً منها.

ـ انتبه يا خالد.

ـ ذراعك مجروحة، انتبه.

كم هو ممتع أن تحس بأنك تغامر، تقدّم أكثر، أحس أنه قريب من العصافير، شعر بسعادة، تمنى لو يحلق لـو يطير لـو يبقـى هنـاك فـي الأعلـى ينـام فوق الغصـن، واقتـرب من الكرة، هزّ الغصن حيث الكرة عالقة، فسقطت، وعلا هتـاف الأولاد يحيّونه:

ـ شجاع.

ـ بطل.

ـ أحسنت يا خالد.

ـ انزل بهدوء.

ولما اقترب خالد من الأرض، قفز برشاقة، وأقبل الأطفال عليه يشكرونه، أحس أن النقود قد سقطت من قميصه، أخذ يجمعها وقد تناثرت فوق العشب، جمعها كلها، من هنا وهناك.

ولكن ما هذا؟ لا يكاد يصدق؟ أربعمئة وخمسون؟ من المفروض أن يكون في جيبه ثلاثمئة وخمسون، دفع إلى البائع قطعة واحدة من ذات الخمسمئة، ولم يكن معه غيرها، ومن المفروض أن يكون البائع قد ردّ إليه ثلاثمئة وخمسين؟ لا شك أن البائع قد أخطأ.

ويسرع خالد إلى أبويه:

ـ أبي، لقد أخطأ البائع، أعطاني مئة زيادة، أنا ذاهب لأردها إليه.

وتناديه أمه:

ـ ولكن يا خالد، ذراعك مجروحة، تعال، سأمسح لك جرحك.

ويرد خالد وهو ماض إلى البائع:

ـ بعد أن أعود، هو خدش بسيط، وليس بجرح، والبائع قريب، هنا عند باب الحديقة.

ويتقدم عماد سائلاً والد خالد:

ـ هل ألحق به يا عم؟

ويرد والد خالد:

ـ لا يا عماد، لا أريد أن ترى الحارس ثانية عند باب الحديقة.

ويرجع خالد، وتغسل أمه الجرح بالماء، وتلفه بمنديل نظيف، ثم تقول وعلامات الإشفاق على وجهها:

ـ هيا، سنعود إلى البيت .

ويعلّق الأب :

ـ اطمئني، الأمر عادي، سنبقى في الحديقة، ونتناول

الطعام، ونستمتع بالجو اللطيف.

ويرجع خالد إلى اللعب مع أصدقائه بالكرة.

الأم والأب يفرشان ملاءة كبيرة على العشب، وتبدأ الأم في إعداد الطعام، الأب يساعدها، ثم يناديان خالد وأصدقاءه، يعتذر الأصدقاء، ولكن والد خالد يلح عليهم، ويتناول الجميع شطائر شهية، وقد قعدوا على الأرض في ظلال شجرة وارفة الظلال.

الطعام في الحديقة شهي، حيث الأشجار والظلال والخضرة والعصافير والهواء الناعش، والطعام مع الصحب والأصدقاء أشهى، ما أجمل الحديقة والحياة، ليتنا نأتي إلى الحديقة كل يوم.

هكذا كان خالد يحدث نفسه.

بسّام، وهو الأصغر في المجموعة، كأنه زهرة بنفسج صغيرة، يتكلم مخاطباً أم خالد:

ـ يا خالة، هناك وردة حمراء جميلة، هل تأذنين لي في قطفها لأقدمها لك؟

وتتكلم الأم:

ـ لا، شكراً يا ولدي، لا تقطفها.

ويسأل بسَّام بعفوية والكلمات تتعثر في صوته كأنها زنابق تتناثر:

ـ ولماذا يا خالة؟ هل تخافين من الحارس، هو بعيد من هنا، لن يراني، أنا سأقطفها ثم أسرع إليك.

ويتذكر عماد الحارس وشد الأذن وعركها، فيبتسم، وتلحظه أم خالد، فتبتسم أيضاً، ثم تتكلم:

ـ لا، ليس الأمر عن خوف، أنا أريد أن تبقى الوردة متفتحة هناك، ليراها كل الناس، وليسعدوا برؤيتها، لا أريد أن آخذها لي أنا وحدي، ولأنها ستعيش هنا في النور والهواء أكثر مما ستعيش لو قطفتها ووضعتها داخل البيت

في إناء.

ويلتفت أمجد إلى والد خالد ليسأله:

ـ هل هذه الشجرة التي نحن في ظلها هي شجرة زيتون؟

ويرد أبو خالد:

ـ لا يا ولدي، هذه ليست شجرة زيتون، هذه شجرة صنوبر كبيرة، وتلك شجرة غار، وهناك شجرة صفصاف، وتلك شجرة الكينا.

ويسأل أمجد وهو يبحث بعينيه في أرجاء الحديقة:

ـ إذن، أين هي أشجار الزيتون؟

ويرد أبو خالد:

ـ ليس في الحديقة كلها أشجار زيتون يا ولدي، أشجار الحديقة كلها غير مثمرة.

ويسأل سمير مدهوشاً:

ـ ولماذا لا تقطع مادامت غير مثمرة ؟ ما الفائدة منها؟

وتضحك أم خالد ثم تتكلم:

ـ لا يا ولدي، ليست الفائدة دائماً فيما نأكل ونشرب، الفائدة أيضاً فيما نرى ونسمع، نحن الآن نقعد في ظل الشجرة، ونستمتع بهذه الرطوبة الناعمة، ونرى الخضرة الزاهية، والأغصان الفارعة، وهذه العصافير فوقنا، تأوي إلى الشجرة، وهي تزقزق، ونحن نحس بالبهجة والسرور، وإلا لماذا جئنا إلى الحديقة؟ هل لنأكل ونشرب؟ ألا تحس أنك بين الحين والحين تشتاق إلى الحديقة وتتمنى زيارتها؟ ما رأيكم، يا أولاد؟

ويفرغ الأولاد من الطعام، يشكرون خالد وأبويه.

وتجمع الأم بقايا الطعام، تضعه في كيس ورقي، وتقول لخالد:

ـ هيا يا ولدي، ضع هذا الكيس في صندوق القمامة.

يحمل خالد الكيس، ينظر حوله، لا يرى صندوقاً للقمامة، فيضع الكيس عند جذع شجرة أخرى قريبة، وتتنبه إليه الأم فتقول له:

ـ لا، يا ولدي، أعرفك نشيطاً، لابد من وجود صندوق للقمامة، هيا، ابحث عنه.

وينهض عماد وهو يقول:

ـ أنا سأحمل الكيس وأرميه في صندوق القمامة، أنا أراه، هو هناك.

وتتكلم الأم:

ـ لا ، وشكراً لك يا عماد، لا يجوز ذلك ، أنت ضيفنا، ومن حق الضيف أن نخدمه، لا أن يخدمنا، هيا يا خالد، احمل الكيس، وأنت يا عماد إذا شئت فاذهب معه لتدله على موضع الصندوق.

ويرجع خالد ليجد الأولاد قد انصرفوا جميعاً، وما يلبث عماد أيضاً أن يتكلم:

ـ هل تسمح لي يا عم بالانصراف، يجب أن أرجع إلى البيت.

ويرد والد خالد:

ـ كما تشاء يا ولدي.

ويودع عماد صديقه خالد ووالديه، يشكرهما لمساعدته، يشكرهما للطعام، وقبل أن يمضي يناوله والد خالد بطاقة باسمه وعنوانه ورقم هاتفه، وهو يقول له:

ـ هذه بطاقة باسمي ورقم هاتفي وعنوان المنزل، أتمنى أن تتصل بخالد وتزوره، أرجو أن تستمر الصداقة بينكما.

ويرد عماد:

ـ شكراً يا عم، وأعدك بذلك.

بعد ذهاب عماد يجلس خالد إلى جوار أبيه صامتاً، كمن فقد إنساناً عزيزاً.

تسأله أمه بحنان:

ـ ما بك يا خالد؟

يطول صمت خالد، ثم يجيب بصوت خافت:

ـ لا شيء.

وتلحّ عليه الأم:

ـ بل هناك ما يزعجك، أخبرْني.

ينهض خالد، يروح ويجيء أمام أبويه، يقعد، يعبث بالعشب الأخضر، ثم يتكلم بحزن:

ـ لماذا أنا وحيد؟ لماذا ليس لي إخوة؟

يعلّق الأب بهدوء:

ـ أنت الآن تشعر بالاكتئاب بعد ذهاب أولئك الأصدقاء من حولك.

وتتكلم الأم:

ـ على كل حال عندك في البيت كتب ومجلات كثيرة، وعندك أيضاً أصدقاء في البناء الذي نحن فيه وفي المدرسة وفي الحي، ولقد اكتسبت اليوم صديقاً جديداً هو عماد، والمثل يقول: ربّ أخ لك لم تلده أمك، هل سمعت بالمثل يا خالد؟

ويرد خالد:

ـ نعم سمعت به يا أمي، وأعرف حكاية يقول فيها الأب لولده الوحيد مثلي: يا ولدي اجعل لك في كل بلد بيتاً، فسأله الولد: ولكن ذلك صعب يا والدي، ويكلفني كثيراً ولا أقدر عليه، فأجابه الأب: بالبيت قصدت الصديق يا ولدي.

ويتكلم الأب:

ـ أحسنت، بارك الله فيك يا ولدي، والآن هيا اذهب، وتجوَّلْ في الحديقة، واستمتع بجمالها، تأمل الأشجار، وتنسَّم شذى الزهور، استمع إلى زقزقة العصافير، ثم عد إلينا.

وتضيف الأم وهي تبتسم:

ـ ولكن إياك أن تفكر في قطف وردة، ولو أعجبتك.

وينطلق خالد للتجوال في الحديقة، النسمات ناعشة، الحديقة ترحب بالأطفال والنساء والرجال ، وهم يتوافدون عليها، يغدون ويروحون، وهي تمدّ لهم طرقها الجميلة، تظلّلهم أشجارها الباسقة، تبسط لهم مروجها الخضراء، تعطف عليهم كالأم الحنون، فتأتلق البسمات على الوجوه.

في ركن من الحديقة رأى بائع مثلجات، والمشترون من كبار وصغار يتزاحمون حوله، ثيابه بيضاء نظيفة، حركته سريعة ناشطة، وهو يناول المشترين قطع المثلجات وهي تشعّ كالزنابق.

وتمتد أمامه يد البائع حاملة إليه قطعة مثلجات كبيرة من الكرز، كأنها قرنفلة متفتحة، وهو يقول له:

ـ خذ، تفضل، يا ولدي.

خالد يذهل، يحمرُّ وجهه، يقول للبائع:

ـ ولكن أنا لم أدفع لك.

ويرد البائع بعفوية:

ـ هي لك، تذوقها أولاً، وإذا شئت ادفع ثمنها أو لا تدفع.

ويشترى خالد لوالديه المثلجات، يسرع بها إليهما، يحدثهما عن بائع المثلجات، كان سمحاً كريماً، كأنه صديق قديم أو قريب، نظيف الثياب واليدين، بل نظيف القلب .

ويقول لـه والده، وهو يتناول المثلجات:

ـ لطف هذا البائع معك يا ولدي عوضني عن قسوة بائع آخر، سامحه الله.

ويسأل خالد:

ـ أي بائع يا أبي؟

ويرسل الأب زفرة، ثم يتكلم:

ـ كنت في عمرك، بل أصغر منك بسنتين، كنت في العاشرة، وكان ذلك في أحد الأعياد، فقد أخذتني أمي في

زيارة إلى بيت خالي، وخرجت مع أولاد خالي إلى ساحة الحي، لنستمتع بالعيد، ونحن نرتدي الثياب الجديدة، ونحمل الحلوى، وقطع النقود، لا نعرف كيف سننفقها، وكان في الساحة أرجوحات وألعاب وباعة لشتى أصناف الألعاب والأطعمة، وكان ثمة بائع مثلجات، توجهت إليه مع أولاد خالي، كنا ثلاثة أو أربعة، والأولاد يتزاحمون حول البائع، يمدون إليه أيديهم بالنقود فيأخذها منهم، ثم يبدأ بتوزيع المثلجات عليهم، وهكذا يعيد الدور مرة ومرتين، يجمع النقود ثم يوزع المثلجات، ومددت إليه يدي بالنقود، فتناولها مني وأخذ يوزع المثلجات، وزّع على الجميع، وأنا أنتظر، وجمع النقود من أولاد آخرين التفوا حوله ثم أخذ يوزع عليهم المثلجات، وأنا أنتظر، أولاد خالي أخذوا مثلجاتهم وذهبوا، وأنا ما أزال أنتظر، قلت لـه يا عم: أين مثلجاتي، قال لي: هات ثمنها، قلت له: ناولتك منذ ساعة، صرخ بي: كذاب، لص، وضاع صوتي وسط صراخه والزحام من حولي، وعدت إلى البيت أبكي.

ويضحك أبو خالد، وهو يروي القصة لولده، ثم يقول:

ـ أروي لك هذه القصة الآن وأنا أضحك، ولكن يا ولدي يجب أن يكون المرء حذراً وحريصاً، ففي الحياة أخيار وأشرار، ولا بد من أن يلتقي بهؤلاء وهؤلاء، وعليه أن يعرف كي يحسن التصرف.

مع حكاية الوالد، أحس الجميع بالمثلجات لذيذة شهية، نقية صافية، ثمنها زهيد كأن لم يأكلوا مثلها من قبل، كأنها مجرد هدية من ذلك البائع السمح، هي حقيقة متميزة ومختلفة.

ومالت الشمس، ونشرت على العشب الأخضر لونها المائل إلى الصفرة، وخيَّم على الجو فتور غريب، وأخذت العصافير تزقزق كثيراً كأنها تودِّع النهار.

وتتكلم أم خالد:

ـ هيا، يا أبا خالد، خالد يرغب في العودة إلى البيت.

ويلتفت إليه والده يسأله:

ـ هل حقاً ترغب في العودة إلى البيت؟

ويردّ خالد:

ـ نعم، يا أبي، إذا رغبت أنت أيضاً.

ويصمت خالد قليلاً ثم يلتفت إلى أمه يسألها:

ـ ولكن، كيف عرفت يا أمي أني راغب في العودة إلى البيت؟

وترد الأم بهدوء:

ـ نحن لم نأت إلى الحديقة في يوم العطلة هذا إلا لأجلك يا ولدي، وإذا كنت أنا أمك لا أعرف ماذا يدور في نفسك، فمن غيري سيعرف ؟؟ وأنا التي حملتك جنيناً ووضعتك وليداً وربيتك طفلاً، أنت قطعة من كبدي، آه يا ولدي لو تعرف قلب الأم؟! أنا أحس بحاجتك إلى الماء قبل أن تحس أنت.

حقيقة، لقد نال الفتور من خالد، وملَّ، وأحس بشيء من الوحدة والفراغ، اشتاق إلى غرفته، وركنه، وطاولته، اشتاق إلى كتبه ودفاتره وأقلامه، وسيعود إلى البيت ليقرأ دروسه، الحديقة ممتعة ومسلية، ولكن لا يستطيع أن يبقى فيها دائماً، لقد تسلى، والآن هو بشوق إلى البيت، فالبيت أهدأ وأجمل، ولابد من العودة إليه.

ويهم الجميع بالنهوض، وإذا بولد يلبس قميصاً أحمر مخططاً، ينتصب أمامهم، يمد إليهم يده بورقة نصيب وحيدة، وهو يقول :

ـ آخر ورقة نصيب، جرّب حظّك يا عم، جرّب حظّ ولدك، هي الورقة الرابحة، عشرة ملايين.

الولد أكبر من خالد قليلاً، ولكنه أقصر منه، بدين، شعره أسود وكثيف وأشعث.

ينظر الوالد في عيني ولده خالد، ويبتسم، ثم يلتفت إلى الولد ليقول له:

- ما اسمك يا ولدي؟

ويرد الولد بارتباك:

- بشير.

أبو خالد يقول للولد:

- انظر إلى ولدي هذا هل تعرفه؟

ينظر إليه بشير، يبتعد قليلاً، ثم يقول:

- نعم، كان هناك يلعب بالكرة.

ويسأل أبو خالد بهدوء:

- ولماذا قذفت كرته عالياً؟

الولد يبكي، ويقول:

- سامحني يا عم.

ويرد أبو خالد:

- سامحتك، ولكن أخبرني: لماذا قذفت كرته عالياً؟

الولد يتكلم والدموع تملأ عينيه:

- صدقني يا عم، في درس الرياضة لا يسمح لي الأستاذ باللعب، أنا أحب الكرة، ولاسيما كرة القدم، أنا مثل ابنك طالب مدرسة، أنا في الصف الثالث الإعدادي، أبي لا يشتري لي ثياب الرياضة، ولا يعطيني ثمن كرة، نحن تسعة إخوة، بعضنا ينام فوق بعض، لا نكاد نشبع اللقمة، أبي فقير، أبي حمال، وهو يجبرني على بيع أوراق النصيب، صدقني أنا أحب المدرسة، ولكن يجب أن أبيع كل يوم عشرين ورقة نصيب، أنا أفكر في ترك المدرسة، هذه آخر ورقة، خذها يا عم، ستربح عشرة ملايين .

ويتكلم أبو خالد:

- الفقر ليس عيباً، ولكن العيب ألا نعمل ونتعلم، والآن خذ.

ويضع في يده مبلغاً من المال، وهو يقول:

- اقبل مني هذا المبلغ هدية، لتشتري به ما تحتاج من كتب ودفاتر، وأرجو ألا تترك المدرسة.

يضع بشير المبلغ في جيبه، يمسح دموعه، يمد يده بورقة النصيب إلى والد خالد وهو يقول:

- شكراً، خذها يا عم، فقد تربح عشرة ملايين.

ويرد أبو خالد:

- لا يا ولدي، بعها لغيري، أو مزقها، لا أريد هذا الربح، رزقي يأتيني من علمي وعملي.

ويلتفت بشير إلى أم خالد، يمد إليها يده بورقة النصيب، يقول لها:

- خذيها على كل حال يا خالة.

وترد أم خالد:

- لا يا ولدي، وأتمنى أن تدرس، وتتعلم مهنة أخرى غير بيع أوراق النصيب.

ويهمس خالد في أذن أمه، فتهز رأسها موافقة، فيبادر خالد إلى الولد يكلمه وهو يقدم إليه كرته:

- أرجو أن تقبل مني كرتي هدية لك، لتلعب بها.

ويعلق أبو خالد مازحاً:

- ولكن، لا تقذفها عالياً حتى لا تعلق فوق الشجرة.

يشكر بشير لوالد خالد تسامحه وعطاءه ويعتذر إلى خالد، ثم يودعهم، يهم بالمضي، فيناديه أبو خالد، يناوله بطاقة تحمل اسمه وعنوانه ورقم هاتفه وهو يقول له:

- خذ يا ولدي هذه البطاقة، فيها اسمي وعنواني، أنا مدرّس، وعندي خمسة طلاب أعطيهم دروساً خاصة في مادة اللغة العربية، يمكن أن تنضم إليهم غداً مجاناً.

وينهض خالد مع أبويه لمغادرة الحديقة.

الشمس غابت وراء أبنية المدينة المنتصبة خارج الحديقة، غيوم سوداء تخدّد الأفق الغربي، مثل وجه شيخ

عجوز، قتامة كئيبة تشمل الحديقة، تتسرب أصوات السيارات في الشارع الموازي للحديقة، ضجيجها يعلو، زعيق حاد لسيارة إسعاف يحزّ في الأعصاب، المصابيح أضيئت، ولكنها باهتة، كأعين رمداء.

عند مدخل الحديقة يرى خالد الحارس السمين القصير، يحمل بيده القصيرة الغليظة باقة ورد كبيرة، يمضي بها إلى باب الحديقة، يناولها إلى امرأة تقف خارج السور، تحمل طبقاً فيه ورود تعرضها للبيع.

يلتفت خالد إلى أبيه يسأله:

- هل رأيت؟!

ويردّ الأب:

- نعم، يا ولدي، رأيت كل شيء، وأرجو ألا تفاجأ، فكل شيء متوقع.

وتعلّق الأم:

- ليتنا ما جئنا إلى الحديقة، ليتنا بقينا في البيت مع الكتب.

ويردُّ أبو خالد:

- بل كان الخير كل الخير في مجيئنا إلى الحديقة، فقد أنقذنا عماد، وكسبناه صديقاً لخالد، وأظن أننا أصلحنا بشير، وأنا متأكد أنه سينضم غداً إلى طلابي، وسأجعله متفوقاً في اللغة العربية.

وتضيف أم خالد:

- ما كنت أتمنى لخالد أن يرى كل هذا.

ويعلّق الأب:

- بل من الخير أنه رأى كل ذلك، وأظن أنه يجب أن يرى كل شيء ويعرف، ليتعلم كيف يتصرف.

وتتكلم الأم:

- أنا أقترح أن نخرج من الباب الآخر، في الطرف

الشرقي، حتى لا نمر بهذا الحارس القميء.

ويلتفت خالد مع أبويه، متجهين نحو الشرق.

وإذا القمر وهو بدر يطالعهم، من وراء أشجار الحديقة، وقد أخذ يعلو في الأفق، ويرقى مثل روح بريئة، ينثر على الفضاء بشرى هادئة، ويشيع في النفس بهجة شفافة مصحوبة بنسمات رقيقة عطرة، وينشر على الكون نوراً وضّاء مثل همسات الندى.

لست رجــلاً

ـ لست رجلاً.

اخترقت رئتيه وحنجرته، اختنق، خرجت عيناه من المحاجر وهو يحدق فيها، صفق الباب وراءه، وهبط في العتمة على الدرج.

الدرج يلتوي تحت قدميه كأفعى، حلقه جاف، أطرافه ترتعش، لو أن امرأة أخرى قالت لـه ذلك لصفعها، لصرخ في وجهها، أو لقعد قبالتها على الأريكة وقهقه عالياً، ولكنه لا يستطيع أن يقول لها شيئاً.

ويدخل في زحام الرصيف.

ـ لست رجلاً.

الصوت الأجش المبحوح ما يزال يملأ رئتيـه، يختـرق نداءات الباعة وزعيق السيارات، يطغى عليها، هل يشترى سكيناً، يبعج بها بطن هذا، ويقطـع أذن ذاك، ليقول لهـا: بـل أنا رجل؟

انصرف مع الموظفين، وقع في دفتر الدوام وخرج، انتظر الحافلة، مرَّ بالسوق، اشترى الخضار والفاكهة، إلى أن وصل إليها، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة والنصف، أكثر من ساعة ضاعت، وهو مرهق من الدوام والعمل، صعد الدرج والسرور يغمره، من دكان حامد الجزار عند مدخل البناء اشترى لها اللحم الطازج، لا تثق إلا بحامد

الجزار، الآن ستسعد بلقياه، ستفتح لـه الباب مرحبة، تضمه إلى صدرها.

- لست رجلاً.

لقد تأخر، نعم، لقد تأخر، ولكن ماذا عليه أن يفعل؟ هل يغادر الوظيفة قبل انتهاء الدوام؟ هل الحاجات التي اشتراها قليلة؟ ولكن كيف يمكنه أن يشتري الأكثر أو الأجود ؟ هل يسرق؟ والآن ماذا سيفعل؟ هل يستجير بالمقهى؟ يتناول طعامه في السوق، ويمضي بقية النهار في الشارع أو الحديقة؟

دار صغيرة، من غرفتين، ومطبخ وحمام، مفروشة بكل شيء، هاتف، وكل ما يمكن أن يوفر راحتها متحقق، منذ يومين فقط اشتريت لها ميكرويف، ماذا علي أن أشتري أيضاً؟ لن أذهب إلى البيت، سأتناول طعامي في أفخم مطعم، سأنام في الفندق، ليقرأ الجميع اسمي غداً في الجريدة، لص، قاتل، حرامي؟

الولد ابن الخامسة ينفجر باكياً، أمه صفعته على وجهه عدة مرات، سحبت الدمية من يده، ثم أعادتها إلى البائع معتذرة، رأى بعينه الولد وهو يستل الدمية من بين ألعاب كثيرة، مصفوفة على الرصيف، والبائع مشغول، الأم لم تتنبه إليه، وعندما تنبهت صفعته، هل ستقول لـه ذات يوم إذا كبر: لست رجلاً؟

الشارع مزدحم، والضجيج خانق، لن أرجع إلى البيت وأنا على هذه الحال، ما ذنب زوجتي والأولاد؟ ما الحل؟إعلى كل حال من واجبي أن ألبّي كل حاجاتها، لعلي أخطأت أو قصرت، لا بأس، سأعود إليها، سأعتذر، ليس الشديد بالصرعة، الشديد من يملك نفسه عند الغضب، ولكن إذا عدت إليها الآن فسوف تستثيرني مرة ثانية وأخرج غاضباً، لا، سوف أستوضح منها: لماذا أنا لست رجلاً؟

دخل غرفة الهاتف:

- أمي، أرجوك أخبريني؟ لماذا أنا لست برجل؟ هل قصَّرت معك في شيء؟

ترد بقسوة:

- لو كنت رجلاً فعلاً، لكنت مثل ابن خالتك قاسم.

ويسأل بهدوء:

- وماذا فعل ابن خالتي قاسم؟

- ابن خالتك اشترى لأمه الهاتف النقال، ابن خالتك ما هو عبد الوظيفة، مثلك، ما هو جبان، يمر بأمه في العاشرة، لا يوقع مثلك في دفتر الدوام، ولا يخاف من المدير ولا المفتش، يزورها في اليوم مرتين أو ثلاث مرات، وهو كل شهر يعطي أمه، ماذا أقول، لن تصدق، حلفت لي أمه أنه يحصل قدر راتبك وراتبه وأربع مرات، وأنت ما في غير راتبك، لا تعرف كيف تدبر رأسك، هل تصدق أن أمه ادخرت خمسين ألف ليرة، وأنا ما عندي ولا ألف.

ويسألها:

- وهل صدقت كلامها؟

- وكيف لا أصدقها؟ أمس جاءت وخبأتها عندي، وقالت: لا تخبري قاسم بها.

- ولماذا خبأتها عندك؟ ولماذا لا تريدك أن تخبريه؟

وترد:

- لا أعرف، المهم أنها تملك الآن خمسين ألف ليرة، وأنا ما عندي ولا ليرة.

- يا أمي يا أمي، هل ينقصك أي شيء؟ هل أنت بحاجة إلى المال؟ على كل حال أنا راجع إليك الآن، لأوضح لك كل شيء، سامحيني، فقد غضبت منك، أنا راجع إليك، هل أحضر لك أي شيء؟

- لا، لا أريد.

- أنا راجع لأقبل يديكِ فقط وأطلب رضاك.

كان يلعب مع ابن خالته في فناء الدار، تحت شجرة التوت الكبيرة، وسقط عصفور صغير، أول تدربه على الطيران، قالت لـه أمه:

ـ أحضر سلماً وأعده إلى غصن الشجرة.

وقال لابن خالته:

ـ أمسك العصفور حتى أحضر السلم.

وقبـل أن يلتفت كـان ابـن خالتـه قاسم قد فصـل رأس العصفور عن جسده، وأخذ ينتف ريشه وهو يقول:

ـ تعال، سنشويه ونأكله.

وقذف ابن خالته الكرة عالياً فسقطت على عريشة العنب في فناء دار جارهم الحاج محمود، الحاج محمود عجوز، تزوج ثلاث نسوة ولم يرزق بولد، خرج إليهم بثيابه الداخلية غاضباً وهو يحمل الكرة بيد وسكيناً حادة بيد، وأمام أعينهم بعج الكرة ثم رماها، أسرع إلى أمه فقالت له:

ـ سامحه يـا ولـدي، فالمسـامح كريم، تعرفـه لـم يـرزق بولد، لذلك هو لا يحب الأولاد.

قال لها ابن خالته قاسم:

ـ والله سأقذف زجاج نافذته بالحجر.

قالت له:

ـ لا يا ولدي، لا يجوز أن نرد الإسـاءة بمثلهـا، وعلينـا أن نحترم من هم أكبر منـا فـي العمر حتى ولـو كـانوا علـى خطأ.

ومضى في الشارع.

سامحها الله، ما كنت أتوقع أن تتغير هكذا.

رجعت من المدرسة مرة ففتحت حقيبتي، رأت ممحـاة، وصرخت بي:

ـ من أين جئت بهذه الممحاة؟

ـ استعرتها من ماجد، ونسيت أن أردها له.

- ولماذا تستعيرها؟ ولماذا لم تردها إليه؟

وشدت أذني، عركتها، بكيت، صرخت، وهي تسأل:

- اصدقني، هل سرقتها؟

- والله لم أسرقها؟

- لا تحلف، ولا تكذب، مرة ثانية لا يجوز أن تستعير من أحد.

دخل محلاً، لبيع الحلويات، طلب تشكيلة من عدة أنواع، صرخ بالبائع:

ـ لا، هذا النوع لا تضع منه أي قطعة، العجين فيه كثير، ضع من ذاك بدلاً منه.

- لا، لا، لا تضع من هذا الصنف.

هكذا صرخ بالبائع ثانية، وصمت هنيهة ثم أضاف:

ـ أرجو أن تسامحني ياأخي، فأنا غاضب، وهذه الحلوى أشتريها من أجل المصالحة.

ويرد البائع:

- فور دخولك المحل عرفت، أنت أشقر، والأشقر يظهر على وجهه النزق بسرعة، مثل البقلاوة، على كل حال الحلوى الآن سوف تجعلك ترضى.

- المهم أن ترضى هي

ويسأل البائع:

- من؟ زوجتك؟

- لا، أمي.

- بارك الله فيك، من يسع إلى نيل رضا أمه في هذه الأيام فهو رجل حقيقة، ليغضب كل الناس إلا الأم، أنا لو كانت أمي على قيد الحياة لكنت أطعمتها كل يوم بقلاوة.

ويمضي على الرصيف، يشق الزحام، راجعاً إلى أمه.

الآن ارتاحت نفسي، لن أغضب بعد اليوم، سأقول لها:

"هل رأيت ؟ أنا رجل، أنت ربيتني على الأخلاق، أنا لا أستطيع أن أكون مثل ابن خالتي"، على كل حال لا ضرورة للمحاورة معها والجدال، يكفي أن أعتذر إليها، وأنال رضاها، لتقل لست رجلاً ولتعدها ألف مرة، لن أطيل المكث عندها، سأشترى حلوى أيضاً وآخذها إلى زوجتي والأولاد، لقد تأخرت عنهم كثيراً، كان يجب أن أتصل بهم.

ولكن ما الذي غيرها هكذا فجأة؟ بكلمة من أختها تتغير؟

أنا أعرف، ابن خالتي ليس مثلي، أو لعلي أنا لست مثله، هو حقيقة أذكى مني، كلما عين مدير جديد للمؤسسة تقرَّب منه، أصبح على الفور صديقه الودود، يعرف هذا وذاك، القريب والبعيد، الصغير والكبير، الناس كلهم يقصدونه، يستطيع أن يخدم الجميع، لا يمكن أن تراه وراء مكتبه، من مؤسسة إلى مؤسسة، ومن دائرة إلى دائرة، لا أعرف كيف كوَّن تلك العلاقات، حتى الصبايا، كلهن يتعلقن به، هو يحدثني: "هذه أهديها زجاجة عطر وتلك خاتم ماس مزيف وثالثة شريط تسجيل لأغنية جديدة، وكل أموري ميسرة، أعمالي تدور، هل يمكن أن أعيش أنا وزوجتي وثلاثة أولاد من راتبي وحده؟ " هكذا يكلمني، ثم يقول: " وخالتك ليست مثل أمك، أنا أمي لا يرضيها أي شيء، أما أمك فطيبة، لا تسأل مثل أمي ".

لا أعرف لماذا أذكره، صورته دائماً في ذاكرتي، وهو في الثلاثين كأنه هو نفسه يوم كان في العاشرة، لا أنسى يوم سقط فوق حوض السمك، فكسره، واندلاح الماء، وأخذت السمكات الحمر تتقافز على الأرض، والدم يسيل فوق شعره الأسود، وهو بقامته القصيرة وجسده البدين يقفز ويصيح مذعوراً: دم..دم.

من يومها كرهته.

ويبلغ الشارع، وهو يحمل صندوق الحلوى، عند باب البناء سيارة إسعاف ورجال يحملون على نقالة جثماناً مغطى بملاءة بيضاء، وثمة حشد من الجيران.

يحث الخطا ، يلمحه حامد الجزار، فيسرع إلى رجال الإسعاف، يستوقفهم صائحاً:

ـ أنتظروا، هذا ولدها.

ويسأل عمر مدهوشاً:

ـ ماذا حصل؟

الطبيب يزيح الغطاء الأبيض عن وجه ناحل مزرقّ ازرقاقاً قانياً، إحدى العينين مغلقة، والأخرى كأنما قلعت من محجرها، وقد سح الدم منها على الخد الغائر فتجمد، وفي الخد نفسه آثار سحج عميق بالأظافر،الدم القاني متجمد على شفتين زرقاوين متورمتين، الشعر منكوش، وخصل مقطعة منه تغطي جانب الوجه، خيط من الدم الأسود المتجمد يمتد من أسفل الأذن ليملأ الرقبة، خدوش وآثار أصابع في العنق.

وأمام المحقق يتكلم حامد الجزار:

ـ عمر رجل حقيقة، فهو بار بأمه، أنا لم أجد رجلاً باراً بأمه مثله، هو لا يشتري لها إلا أجود أنواع اللحم، ولا يسأل عن السعر، ولكن اليوم، بعد خروج عمر بربع ساعة تقريباً دخل البناء شخص غريب، وبعد خمس دقائق خرج بسرعة، كالملسوع، وهو يتلفت حوله، أشار إلى سيارة أجرة ومضى.

ويسأله المحقق:

ـ هل تذكر أوصافه؟

يصمت حامد الجزار قليلاً ثم يتكلم:

ـ في الثلاثين تقريباً، أسمر، قصير، بدين، شعره أسود.

ملف حفل تكريم الفنان

الاجتماع الخامس

خلا المدير برئيس الحركة، سأله:
ـ هل عندك خطة لاحتفال جديد؟
ويتكلم رئيس الحركة:
ـ منذ سنة تقريباً مات الفنان الذي
ويقاطعه:
ـ نعم.. نعم.. هات ما عندك بسرعة.
ـ نعلن عن مسابقة ...
ويقاطعه:

ـ لا بأس أنا موافق، نفذ فوراً
ويتكلم:
ـ وإذا سألني المعاون؟
ويرد على الفور:
ـ قل له: أمر *المدير*.

الاجتماع السابع عشر

ـ سيدي المدير. ـ تكلم وبسرعة.
ـ تقدم إلى المسابقة أكثر من ثلاثين بحثاً عن سيرة الفنان.
ـ لخص لي عشرة بحوث أو اثني عشر بحثاً.
ـ والبقية؟
ـ تصرف بها
ـ سيدي
ـ تكلم وبسرعة
ـ المعاون، معاونك
ـ أعرف أعرف، أنت مفوض بكل شيء، وإذا سألك فقل له *المدير*.

ملخص البحوث المقدمة

ملخص البحث الأول :
رسوم الفنان كانت كلها محض زهور تجريدية، لا تصور الواقع ولا تلتزم به، مما يدل على عزلة الفنان، وبعده عن مجتمعه.
الثاني:
كان الفنان مرتزقاً، يرسم فقط لأجل لقمة العيش.
الثالث :

هو فنان موهوب، ومبدع، وعبقري، ولكنه فاشل، لم يستطع رسم لوحات تشكيلية، فلجأ إلى الرسم على السيراميك، ليعوض عن إخفاقه.

الرابـع :

كان فناناً ملتزماً، ارتبط بواقعه ، وعبر عنه، وخدم قضايا أمته وشعبه، ويكفيه فخراً أنه قدم آلاف الرسوم، ملأ بها الحمامات والمطابخ مؤكداً بذلك نزول الفنان من البرج العاجي، ليمنح فنه إلى أبناء شعبه.

الخامس :

تدل رسوم الفنان على شبقه الجنسي، فرسومه كلها تصور أعشاباً منتصبة إلى الأعلى، وعصافير تمد مناقيرها، وسمكات تشبه في تكوينها الأعضاء الجنسية.

السـادس :

يؤكد الفن الرائع الذي أبدعه الفنان نجاح الإدارة التي شجعته ووفرت له المواد وساعدته على إنجاز تلك الرسوم، فلولا الإدارة الحكيمة لما كان ذلك الفنان، فالفضل كله للمدير.

السابـع :

الحاجة أم الاختراع، هذا ما يؤكده الفنان، فلولا فقره، لما اتجه إلى الرسم.

الثامـن :

إن لجوء الفنان إلى تزيين الحمامات برسومه، يدل على عجزه الجنسي، وهو برسومه التي دخلت كل حمّام، عوض عن ذلك العجز.

التاسـع :

كان الفنان يمارس الرسم في غرفة صغيرة تقع في أقصى مصنع السيراميك، وكان لا يخالط العمال، ولا

يشاركهم حياتهم، وكان متشائماً، سوداوي المزاج، ميالاً إلى العزلة.

العاشـر:

إن الرسم على السيراميك فن عربي إسلامي أصيل، ولا يمكن أن يدعي الفنان أنه هو الذي ابتكره، كما لا يمكن القول إنه طوّر فيه، بل لعله نزل به من سماء الفن، حيث كان السيراميك يزين القصور والمساجد، فأصبح يزين المطابخ والحمامات.

الحادي عشر :

لوحظ إقبال الأولاد على طرف المصنع، وتجمعهم قريباً من غرفة الفنان، ولعله كان يعطيهم بعض ألواح السيراميك، وإذا دل هذا على شيء فإنما يدل على شذوذ، وليس هذا غريباً، فقد مات من غير أن يتزوج أو يعرف عنه أنه أحب.

الثاني عشر :

إن الفنان بنذره حياته لرسوم السيراميك لحمامات الطبقة الأرستقراطية إنما يدل على انخلاعه عن طبقته، كما يدل على حلمه باللحاق بالطبقة الأرستقراطية، وهو بذلك يخون انتماءه الطبقي.

محضر اجتماع اللجنة التنظيمية

خلاصة محضر الاجتماع الحادي والعشرين :

إن اللجنة التنظيمية في اجتماعها الحادي والعشرين، قد خلصت بعد التداول، إلى ما يلي :

1- تشكيل لجنة تنفيذية يرأسها مدير المعمل بالإضافة

إلـى رئاسـته اللجنـة التنظيميـة واللجنـة العلميـة واللجنة المالية .

2- دعوة وسائل الإعلام المحلية والدولية من مرئية ومسموعة وفضائية لتغطية الحفل إعلامياً واستضافتها في فندق ذي خمسة نجوم.

3- دعوة العمال جميعاً لحضور الحفل، وتأكيد أهمية التزامهم العفوي بشراء بطاقتين بسعر مخفض، فقد أثبتت الاحتفالات السابقة نجاح هذه الخطة.

4- لضمان سلامة الآلات والمولدات والمواد يوقف العمل في المعمل ليكون يوم الاحتفال يوم عطلة فعلية ولكن غير رسمية على نحو ما تمّ في كل الاحتفالات السابقة.

5 - بطاقات الدعوة تمهر بختم ***المدير***.

برنامج الحفل

1- الافتتاح برقصة حديثة.
2- الكلمة الأولى لمدير المعمل مدير اللجان.
3- الكلمة الثانية لموزع السيراميك الأول في الداخل والخارج.
4- الكلمة الثالثة لتاجر البناء الأول الأكثر استهلاكاً لسيراميك المعمل.
5- فاصل رقصة أحدث
6- مسابقات تتضمن أسئلة عن كميات السيراميك المنتجة والمبيعة والأرباح والأنواع.
7- رقصة حداثية.
8- دعاية إعلامية للتاجر الذي موّل جوائز البحوث.

9- العودة إلى المسابقات.
10- دعايـــة إعلاميـــة للتـــاجر الـــذي مـــوّل جـــوائز المسابقات.

11- رقصة حداثانية .
12- قراءة ملخص البحث الفائز بالجائزة الأولى.
13- دعاية إعلامية للتاجر الذي موّل الحفل.
14- توزيع الجوائز .
15- رقصة حداثوية.
16- كلمة أسرة الفنان الفقيد يلقيها بالنيابة مدير المعمل لأن الفنان لا أسرة لـه ولا أولاد.
17- بيان ختامي يلقيه ***المدير***.

لقاء جانبـي

مـدير المعمـل يلتقـي رئـيس الحركـة قبـل بـدء الحفـل، ويسأله:

ـ ما هي توقعاتك؟ أخبرني؟

رئيس الحركة يجيبه:

ـ الحفل نـاجح حتمـاً، حتـى قبـل أن يبـدأ، ربحنـا مـن الإعلانــات ثلاثــة أضــعاف مــا أنفقنــا، وغطينــا خســائر المعمل لثلاثة أشهر، وروّحنا عن العمال، وأنسيناهم كلّ شيء.

ويتكلم المدير:

ـ احتفلنا حتى الآن ببناء سور، وبثقب الأوزون، وبمرور المذنب هالي، وبذكرى اكتشاف القطب، وبقدوم الصيف، وهذا أول احتفال من نوعه، ولا أعرف بماذا سنحتفل غداً.
ـ لا تقلق، اترك الأمر لي حضرة *المدير*.

همس

أحد العمال يهمس لزميله في أثناء الحفل:
ـ كان من الضروري وضع صورة للفنان على المنصة، ما رأيك؟
ويرد زميله:
ـ أنا أسألك، هل ذكروا اسمه في الحفل؟
ـ لا، أنا ما سمعت غير اسم المدير.
ـ يكفي أنهم وضعوا خمسين صورة *للمدير*.

قرار اللجنة العلمية

بعد القراءة والاطلاع والتداول، تعلن اللجنة ما يلي :
الجائزة الثالثة : البحث الثالث عشر
الجائزة الثانية : البحث الرابع
الجائزة الأولى: البحث السادس

وتوصي اللجنة بقراءة البحث الأول في حفل التكريم.

العضو الأول وأمين السر   *رئيس اللجنة*
رئيس الحركة   ***المدير***

قرار إداري

حفظاً لحقوق الفن، وحفظاً لحقوق الفنان، وبما أن الفنان وحيد، لا أسرة له، ولا ورثة، فقد عاش وحيداً، ومات وحيداً، فإن حقوق فنه ورسومه كلها محفوظة، وتؤول ملكيتها إلى المعمل، ويمثله قانونياً **المدير**.

ملخص البحث الفائز بالجائزة الأولى

شاب قصير بدين جداً يتلو وهو يتعرق ويتلعثم ملخص البحث الثالث عشر الفائز بالجائزة الأولى:

بالاعتماد على فورمولوجيا الشكل اللوني ومؤسساتياً بالانطلاق من ابستمولوجية اليد وهي تشتغل على الكون والمادة تقودنا عرفانية اللون إلى برهانية خاصة بإستطيقا السيراميك، وهذه المقولات الديناميكة غير الستاتيكية تؤكد الإبْدَعَوي في رسوم تستمد برنامجها الدوغمائي لا البراجماتي من تسارعية الفعل البشري المبني أنثروبولوجيا ضمن العلاقات السسيولوجية بين الإنتلجنسيا والبروليتاريا على ديناميكية الحراك

الاستراتيجي للسيد ***المدير***.

همس جانبي

المدير يهمس لرئيس الحركة سائلاً:

ـ كانت الملخصات اثني عشر، كيف صارت ثلاثة عشر؟
ـ الواقع، ابن أختي كان في السفر.
ـ وما علاقة ابن أختك بالموضوع؟
ـ هو صاحب البحث حضرة المدير.

فيـروز الهيـام

مثـل همـس الأنـداء، ينفـتح البـاب الزجـاجي أمامـه، فيـدخل، كأنمـا يـدخل بحيـرة نـور، ملتفـاً بمعطفـه، يتوجـه كطيـف إلـى مكتـب الاسـتقبال يـذهل أمامهـا، تسـتولي عليـه بحضورها مثل عطر يملأ الأرجاء.

من أنت؟ وكيف جئت إلـى هنـا؟ ولمـاذا؟ مـاذا تعملـين؟ هل أنت حقاً عاملة استقبال في فندق؟ كل شيء لايعقل؟ هذا الكيان أعرفه منذ قرون.

ـ أهلاً، تفضل.

صـوتها، أشـذاء تنتشـر، وربيـع يبتسـم، وسـماء تتشـقق كوردة، وأنت تحلق فـي فضـاء مـن نـور، تهمـي أنـداء، تلـف الكون بقوس الألوان.

ـ اسمك، من فضلك؟

هكذا يسألها بثبات، وهو المذهول، صوته يسيطر علـى الأرجاء، وتستجيب مثل فراشة.

ـ ألم تعرفني يا حسام؟! أنا فيروز؟

هكذا تشع الأكـوان بصـوتها النـديان، فيغيـب فـي دفـق الإشراق

وتغمر الآفاق لحون الندى والعبير.

يسقط عنه معطفه، يرميه على الحاجز الخشبي الفاصل بينهما، يرى ساعة الجدار، في حالة من الهيام، يقول:

ـ الساعة تجاوزت الثانية، ولا أحد من النزلاء سيأتي بعد الآن، هل من الممكن أن نشرب القهوة معاً ؟

ويأتيه الجواب كظل وردة :

ـ بكل السرور، ولكن...

وتدفع بلطف باباً في الحاجز الخشبي الفاصل بينهما، ثم تهمس كالشذى:

ـ تفضل، ههنا، إلى مكتبي.

ـ ولكن، أنا دعوتك، سنشربها هناك في البهو.

وتردّ بهدوء عذب كالأحلام:

ـ لا، بل ههنا، ومن قهوتي أنا

وفي زهو الهيام يستجيب، وكالظل ينعطف، يدلف كالربيع، يجتاز الحاجز الخشبي، يدخل إلى ركنها، يقعد حيث تشير، على أريكة طويلة ناعمة، يغوص في دفئها، وإذا هو في قصر من قصور الجنان.

ومثل سوسنة متفتحة تتكلم:

ـ هنا أنا، وهناك الروّاد، وحين دعوتك إلى هنا، أردت أن تجيء إلى حيث أنا، كي لا تكون حيث الرواد الغرباء العابرون.

وترفع من فوق مكتبها آنية من زجاج أزرق، تأتلق مثل عنق الطاووس، وتصب في فنجان من لازورد قهوة يسطع عبقها، ممزوجاً بصوتها النديان، وهي تقول:

ـ هذه قهوتي أنا، أعددتها بنفسي، ليست كقهوة الخدم

التي تقدم هناك.

وتمد إليه يدها بالفنجان، ينهض، يقف قبالتها كالجبل، يحتضن شجرة وارفة الظلال.

أي فيروز أنت؟ أمن حجارة الأرض أم من حجارة السماء؟ أي بحار صاغتك من زبدها الأبيض النقي؟ أي نجوم تلك التي منحت عينيك ألقها؟ أي شموس أضاءت بسمتك الخالقة؟

ويمد إليها يده، في بحيرة من الهيام والفيروز والظلال والأشذاء والأنداء، يريد تناول يدها قبل الفنجان، وبرقة الطائر الأليف، تحمل الفنجان بإصبعين ناعمتين عطرتين، وتضعه بين أصابعه المتجهة إلى أناملها، وإذا الفنجان في يده، من غير أن يلمس أناملها.

ويغوص ذاهلاً في موضعه من الأريكة، وفنجان القهوة مايزال في يده، كطائر يكاد يطير.

ـ أأحتسي القهوة أم أكتفي برشف العبق ؟

هكذا يسألها، وقد اتخذت مكانها قبالته، على مقعد منفرد عال قليلاً، وتتكلم كالحكيم:

ـ أنت، وما خلقت له أو ربيت عليه.

ـ ما أنت بعاملة استقبال.

ـ وما أنت بواحد من أولئك الرجال.

ـ وكيف عرفت؟ لعلي أكون ؟

ـ لأنك منذ البدء سألت عن اسمي، ولم يسأل أحد من الذين هناك وراء هذا الحاجز مثلما سألت، كانوا يصبون في أذني كلمات الثناء أو الاشتهاء، وعيونهم ليس فيها

سوى الافتراس، أقلهم أقلهم كان يسأل عن اسمي قبيل المغادرة والخروج.

ـ وهل أنت ناقمة ؟

ـ لا، لست ناقمة، ولا حاقدة، ولن يلقوا مني سوى الإشفاق.

ـ ما سر هذا، وما سبب ذاك؟

ـ لأنهم جميعاً في الغربة، وهم الأقوياء، يضعفون.

ـ هل يمكن أن تخمّني ما سأفعل أنا ؟

ـ بعد أن عرفت الاسم لن تقدر على فعل شيء.

ـ وكيف عرفت؟

ـ سؤالك شاهد عليك، فالذي يسأل لا يفعل، والذي يفعل لايسأل، وثمة دليل أيضاً، الفنجان في يدك، لم تقدر على الارتشاف منه، ولا على تنسم العبق.

يضع الفنجان من يده على منضدة صغيرة أمامه فتضيف على الفور:

ـ ها أنت ذا تؤكد ذلك، بالفعل، لا بالقول.

يصمت يطرق، يهمس:

ـ فيروز ..

*

في فناء الدار كنت أجري في إثرها، أطاردها، تلف حول البركة تحت عريشة الياسمين، وألف في إثرها، وأنا أنادي فيروز، فيروز، وأتعثر، وأقع فترجع، أضمها إليّ، أخبئها في عنقي، أشدها إلى صدري، أضغط على عنقها، أداعبها.

وتصيح بي أمي:

ـ اتركها يا حسام، قد تؤذيك

ويأتي صوت جدتي معقباً :

ـ لا تخافي، لن تؤذيه، هذه من تربيتي أنا، وهي تعرف أنه يلاعبها.

وتضع جدتي قفص الكناري على حافة البركة، فيأخذ في التغريد، وتقترب منه فيروز، تقعي أمامه، تتأمله، تتأمله طويلاً، تصغي إلى تغريده، مارأيتها تتلمّظ قط أمامه، كانت عيناها ترقّان أحياناً، لكنها ما تلمظت قط.

ـ فيروز، قطة ليست كسائر القطط.

هكذا كانت جدتي تحدّث جارتنا، أم علي، وهما ترشفان القهوة معاً. ثم تضيف:

ـ هي من تربيتي أنا، هي أحسن من الولد والبنت، صدقيني ما اصطادت عصفوراً أبداً، ولا طاردت فأراً، هي لا تشرب إلا الحليب. ولا تشربه إلا من يدي، حتى لو ماتت من الجوع، هي فيروز بحق، بل صدقيني هي أغلى عندي من الفيروز.

*

ويهمس ثانية :

ـ فيروز

ينهض، يقف قبالتها، يتملاّها، ثم يوليها ظهره، يمضي إلى الحاجز الخشبي، يدق بيده عليه، وهو ما يزال يوليها ظهره، ثم يقول:

ـ لا أعرف لم كان هذا الحاجز؟

ـ لابد منه،هو في كل مكان موجود، حداً فاصلاً بين موضعين، ولا بد أن تكون هنا أو هناك.

*

ـ قطة البيت، يا أم علي، غير قطة الأسطحة والأزقة والحارات، وقطة هذا البيت، فيروز، غير سائر القطط، أضع أمامها الكناري وأطمئن، هي تعرف موضعها.

هكذا كانت جدتي تقول لجارتنا أم علي.

*

ولكن، فلتحطم فيروز قضبان القفص، ولينتشر الريش الأصفر الزاهي، ولتتناثر بقع الدم الملوث على الحاجز الخشبي، ولتختلط المواضع، وليتداخل المكان في المكان.

يلتفت إليها ويقرر، ويده قابضة على الحاجز الخشبي:

ـ سأنسحب إلى هناك، حيث يقعد كل الرواد، وسأطلب قهوة يعدها لي أحد الخدم.

وتهتف به، تستوقفه:

ـ لا، أنت حسام، قهوتك خاصة ومكانك مختلف.

يلتفت إليها، يرفع بنصر يده اليمنى، فيأتلق في الإصبع خاتم كشمس تموز فوق حقل حنطة، ثم يهمس:

ـ سأبوح لك بشيء، هذا الخاتم المتوَّج بالفيروز أهدتنيه جدتي وأنا طفل، قالت : هو ذكرى من جدك، حافظ عليه.

يصمت، يرسل زفرة، ثم يهمس، وهو مطرق:

ـ ذات ليلة، أحس، لا أعرف أين؟ أوكيف؟ سوف يسقط الفيروز منه، سوف يضيع، هكذا أحس أو أتمنى، لا أعرف.

فيروز تنهض من موضعها، تدنو منه، تضيء بصوتها سدف الظلام، وهي تقول:

ـ لا ياحسام، الفيروز لايسقط، ولا يضيع، الفيروز يشع دائماً، يضيء، وموضعك أبداً هنا، لاهناك، ولو فكرت في ذلك ألف مرة، وهذه هي قهوتك، فاشربها أو لا تشربها، هي قهوتك ولا يمكن أن تشرب غيرها، هي قهوتي أنا، فيروز.

يرجع إلى موضعه، يغوص في الأريكة، وترجع هي إلى مكانها، من مقعدها العالي.

آنية القهوة ذات العنق الأزرق كالطاووس تأتلق فيما بينهما، تشمخ.

فيروز تأخذ في الحديث، تحدثه عن مكتب الاستقبال، عن الفندق، عن المدينة، عن العالم، عن الكون، عن الشيطان والإنسان والله.

*

همسات الفجر الناعمة تداعب جفنيه، يحس بدبيب في الأوصال، يفتح عينيه، يجد نفسه على الأريكة، مغطى بمعطفه، وتشخص أمام عينيه فوق منصة الاستقبال دلَّة قهوة نحاسية مسودَّة، لوثها الهباب والسخام الأسود، وانسكبت على حافاتها قهوة سوداء محترقة.

يفرك عينيه، لا أحد في البهو، لا أحد في البهو، وباب الفندق مقفل.

يرفع يمناه إلى مستوى عينيه، يرى في البنصر خاتماً ذهبياً مرصعاً بالفيروز.

أبو شفيــق

عند نهاية الاجتماع، يدخل النادل، يضع فنجان قهوة أمام مديري، مديرالتصدير، فنجاناً آخر أمام مدير الاستيراد، فنجاناً أمام معاون هذا المدير، وفنجاناً أمام معاون ذاك، وأنا أنتظر، يلتف حول الطاولة، يقترب منا، نحن الاثنين، المسافة تبدو لي بعيدة، نحن في الجنوب، هم في الشمال، يستقر الفنجان أمامي بعد فنجانها، إلى أن استقر الفنجان أمامي طال شوقي إليه، امتدت المسافة، أكاد أنهض لأستبق النادل، أتناوله من يده، واللهاث الحار يتصاعد مني ومن الفنجان، ولكن مع ذلك أحس أنه قد برد في الطريق الذي قطعه حتى وصل إليَّ، فالمكيف ينفث الهواء البارد كثيفاً، وأنا لا أحب فنجان القهوة إلا حاراً لاذعاً، لكن هكذا كتب علينا، نحن سكان الجنوب، كرم منهم في الواقع تقديمهم القهوة لنا، كرم منهم حضورنا معهم الاجتماع، ولكن مادعينا نحن إلا لنكتب، إلا لندون ما يتفقون هم عليه، لأننا نجيد الكتابة، نحن كالمذيع، المطلوب منا أن نرتدي الثياب الأنيقة، أن يكون صوتنا قوياً، أن نحسن القراءة، ثم لنقرأ ما هو مكتوب، نقرؤه من أعماق القلب، نعطيه كل قوانا ومشاعرنا، ننفحه انفعالاتنا، كأنه خبر ولادتنا أو خبر وفاتنا، علينا مع ذلك أن نقرأه كما هو مكتوب، حرفاً بحرف، لا يمكن أن نسقط حرفاً أو نزيد حرفاً.

الطاولـة تمتـد مسـتطيلة لامعـة مقدسـة، مثـل بركـة مستطيلة فـي فنـاء مسجد، لا غبـار، لا دخـان، الزجـاج نقـي لامع، الغرفة مضاءة بمصابيح بيضاء، النور أبيض، الهواء مكيـف، نفثـات جهـاز التكييـف ناعمـة، همهمـات المـدير، مـديري أنـا، وهمهمـات المـدير الآخـر، مـديرها هـي، كلهـا همهمات هادئة ناعمة، مثل هسهسات المكيف، وهو ينفث هواءه المبرد، منفضة واحدة من كرستال فاخر علـى زجاج الطاولة بين المديرين، لا شـيء، سوى بضـع أوراق أمـامي وبضع أوراق أمام السكرتيرة، هدوء ناعس، وفنجان القهوة أمامي لابث، أبيض، أنيق، أنيق جداً مثل نادل في فندق ذي نجوم عشرة، ربما ما مر من قبل على شفة، ودخان ناعم رشـيق يتصـاعد منـه فـي الجـو المبـرد الهـواء، فيتثنـى مثـل صبية لا تجيد الرقص.

مدير الاستيراد، ونحن في ضـيافته، يشـير إلـى النـادل، فيحضر علبة خشبية فاخرة، يفتحها، فإذا فيها صفوف من سيجار فخم، يتقدم النادل من مديري، ينحني بأدب جم، يقدم إليه علبـة السيكار، مديري يعتذر، يقدم العلبـة إلـى كل من المعاونين، ولكنهما يعتذران، ربما كان في نفس كل واحد، حتـى أنـا، رغبـة فـي أخذ الصـندوق كلـه، لكنهمـا يعتـذران، النادل يتقدم من مدير الاستيراد، فيستل سيجاراً، النادل يغلق الصندوق بهدوء، يعيده إلـى مكانـه، علـى المكتـب القـابع فـي أقصى الغرفة مثل قلعة، مديري يخرج من حقيبته الجلدية كيساً مخملياً أحمر، يفتحه بأناقة، يستل منه غليونـه الخشبي الفاخر، يخرج كيس التبغ، يحشو الغليون، بآلية أعرفها فيه، ببطء هادئ، كأنه يؤدي طقساً تعبدياً، لا يقل عنه في التكلف مضـيفنا، مـدير الاسـتيراد، وهـو يفض عن السيكار غلافـه الشفاف اللامع، يقضم طرفه بأسنانه، يضعه في فمه، يسرع النـادل إليـه، وقـد أشـعل قداحتـه، بلهبهـا المتقـد يشـعل رأس السـيكار، مـديري يشـعل قداحتـه الفـاخرة، لقـدحها صـوت

متميز، وهي مثل غراب أسود، يغمس اللهب في قاع الغليون، عبق السيكار يملأ الجواء في دفقات مثل ضربات طبل كبير، شذى الغليون المعطر يشدو مثل سحبات كمان.

دمي يغلي، ظامئ أنا، لست وحدي من يتابع تلك الطقوس، السكرتيرة أيضاً، وكل من معاون مديري، ومعاون مديرها، نحن جميعاً نتابع طقوس التدخين باهتمام أكبر من اهتمامنا بالمفاوضات التي كانا يجريانها قبل قليل.

سأرجع إلى البيت، وبعد الغداء سأفض علبة التبغ أمام زوجتي ببطء وهدوء تماماً مثلما فعل المدير، غداً سأدعو المستخدمين في الدائرة إلى اجتماع في مكتبي، أنا رئيس الحركة، وقبل نهاية الاجتماع أخرج علبة سكائري، أفتحها بهدوء بطيء، أستل منها سيكارة، أشعلها ببطء، أنفث دخانها، علبة دخاني رخيصة، ولكنها تظل أغلى من أي علبة تبغ أخرى مما يدخنه أولئك البسطاء، بل سأشتري علبة تبغ فاخرة، سأشتري قداحة، أحتفظ بهما للاجتماعات التي أدعو إليها المستخدمين.

علبة التبغ في صدري طائر حبيس في قفص، السكائر كلها تود لو تخرج لو تطير، أمد أصابعي إلى العلبة، أتحسسها، هي عند القلب، أكاد أخرجها، ما أحوجني إلى نفثة واحدة، القهوة لا تطيب إلا مع نفثة من دخان، عبق القهوة يناديني مثل امرأة سمراء لجسدها رائحة فاغمة، وأنا المشتاق، السكرتيرة أمامي بيضاء، موردة، صدرها مثل زجاجة عطر فرنسي، بلور رقيق شفاف، ليتني هناك في مقهى نجمة الميدان، الرصيف ضيق، والشارع يلتف حوله مثل خصر ممتلئ، وأنا لا تحلو لي القعدة إلا عند زاوية الرصيف، في الظل المعتم، حيث تلف كل السيارات والحافلات والشاحنات، أغرق في ضجيجها، ويحلو عبق السيكارة مع فنجان القهوة، يقدمها لي أبوشفيق في صينيته الصدئة المهترئة، وأنا أقول له: " سلمت يداك، يا أبو شفيق، والله ما أخطأ من سمَّاك أبو شفيق"، يضع الفنجان

على منصة معدنية صغيرة، قوائمها تتقلقل على الرصيف الذي تشق فيه الحفر كل يوم، جد جدي لابد شرب في هذا المكان، لا أعرف لماذا يجتاحني إليه شعور غريب، وأشعل عود الثقاب، أكور على اللهب الدافئ أصابعي، أخبئه، أحميه، أدنيه من رأس السيكارة، لا بد أن أشعلك أيتها الفاتنة، أحرق قوامك، أبلك بفمي، ثم أشعلك، أمتصك، أمتص الدخان، وآخذ رشفة من السمراء المحترقة، من شفة الفنجان الأسود، وأنا أعرف أنه قد مرَّ قبلي على آلاف الشفاه، طعمه متميز، أنفث الدخان، أرسله قليلاً قليلاً، لينداح دوائر دوائر، أصنع أفلاكاً، أبني كوكباً، أخلق عالماً، ثم أنفث البقية، أرى من ورائها السيارت والحافلات والشاحنات، وهي حولي تدور، رشفة أخرى من السوداء اللاذعة، وسحبة أخرى من الممشوقة القوام المحترقة، تمنحني نشوة لاذعة حارقة، أعرفها تقتلني تخنقني تمتص عمري، أعرفها كاذبة خادعة، أطفئ آخر أنفاسها المشتعلة في ثمالة القهوة السوداء المرة، أخنقها، الخائنة الغادرة الكاذبة، وأنا ألعن أول يوم عرفتها فيه، وما ألبث أن أستل من صدري واحدة أخرى غيرها.

وأنت أيتها البيضاء الناعمة كيف سأشرب قهوتي من غير سيكارة تلوث الأجواء، كل ما حولي هنا نظيف، مكيف، ناعم هادئ، قميصك أبيض، زهرات التطريز بيضاء ناعمة، صدرك أبيض ناعم، يبدو أني سأتحول إلى الأبيض، سأعتاد البياض، أخاصره وأداعبه، مرة تذوقت الكابتشينو، عندما رأيت القشدة البيضاء على وجهه أنكرته، أنا لا أحب إلا القهوة السوداء، ولكن عندما غصت فيما هو تحت القشدة البيضاء، عندئذ طاب الأبيض والأسود، ولكن الآن لا سبيل إلى سيكارة، كيف أخرج العلبة الرخيصة في هذا الحرم المقدس؟ كيف أخرج علبة كبريت رخيصة؟ كيف أنفث في هذا الهواء دخاناً قذراً رخيصاً؟ المكيف نفسه

لن يتحمل دخان سيكارتي الرخيصة.

في حقيبة السكرتيرة علبة تبغ فاخرة من غير شك، وقداحة ثمينة أيضاً، قداحة أهداها إليها أحد المراجعين، بل ربما أهداها إياها المدير نفسه، في مكتبه من غير شك عشرات القداحات، كلها هدايا.

سكرتيرة مديرنا في إجازة، لذلك حللت أنا اليوم محلها، لم يدع المدير أحداً سواي، قال لي: " أنت مجاز في الحقوق وتحسن كتابة محاضر الجلسات، لذلك ستحضر بصورة استثنائية اجتماعاً خاصاً مع مدير الاستيراد، الموعد الساعة الحادية عشرة، في الحادية عشرة إلا خمس دقائق تكون هناك، ما عليك إلا أن تسجل محضر الاجتماع " .

غداً، أحدث صديقي أبوجميل رئيس الديوان عن الاجتماع، الطاولة طولها تسعة أمتار، قطعة واحدة ، لا أعرف كيف أدخلوها إلى غرفة الاجتماعات، الزجاج مرآة، التكييف يجعلك في جنة، كنت على يسار مديرنا، مديرالاستيراد ضيَّفنا سيجاراً فاخراً، من ظمئي للتبغ أحرقته كله، للأسف، كان بودي أن أحتفظ بجزء منه، هو ضخم حقاً، أنا لم أحرقه كله، حملته إلى البيت، أحرقته في البيت، بعد عشاء قاتل، أحرقته كله، سهرت حتى الفجر، اليوم أنا بين الصاحي والنائم، وزوجتي طوال الليل سهرانة معي، كلما فرغت دلّة قهوة أعدّت لي غيرها، سرورعلى سرور، وبسط على بسط، وقبضنا تعويض الاجتماع، وتناولنا حلويات فرنسية وإيطالية وعربية كلها بالسمن العربي الخالص، وأبو جميل صديقي المسكين مصدق وغير مصدق.

قدمي ترتد، أصحو، قدمي دقت قدم السكرتيرة، أو قدمها دقت قدمي، لا أعرف، ماذا تريد مني؟ هل قلت شيئاً؟ هل أخرجت علبة التبغ؟ هل..؟ حذاؤها تحت المائدة رشيق ناعم، هو مجرد سيور جلدية، أصابع قدمها عارية،

أظافرها مطلية بالأحمر، الوردي المثير، بل بالبنفسجي، أنا أحب اللون البنفسجي، لا أعرف لماذا، هو رقيق وناعم، هو حزين، وصالح عبد الحي يغني له، ليه يابنفسج بتبهج، وأنت ورد حزين، الآن أحس بحذائي، هو حذاء شتوي مغلق ثخين سميك، هل يمكن أن أمس به أناملها؟ أصابع قدمي مختنقة، تتشنج، تتخدر، تتيبس، وهي محبوسة في الجورب، داخل الحذاء، لعل الأمر محض مصادفة، فلأعتذر.

أنظر إلى سطح المائدة، الزجاج الأبيض الشفاف النقي يعكس صورتها، ناعمة صغيرة، فراشة، حمامة بيضاء، أرى عينيها، تنظر إليَّ، ترقبني، أرفع نظري إليها بهدوء، أرفعه إلى السماء، فمها الناعم الململم يبدأ مشروع ابتسامة، شراع بدأت ملامحه تتخايل وراء الأفق وهو يقترب شيئاً فشيئاً، المائدة متألقة، المائدة تفصل بيننا، مثل محيط، المائدة تصل بيننا، وفنجان القهوة زورق، يداها على المائدة، يداي على المائدة، تلمس فنجان القهوة، ألمس مثلها الفنجان، بأنملها الناعم تمسح على حافته تدور مع استدارته، كأنها تريد أن تداعبه.

أول إقبالها نحو المائدة نهضت، استقبلت يدها الممتدة إليَّ للمصافحة، تناولتها بكل لطف وود، لمست أناملها، تحسست الدفء واللدونة، حسبت أني سأسحبها هي كلها مع يدها إلي، ولكن سرعان ما سحبت يدها من يدي، وطارت مثل فراشة. قلت: لن أستطيع النظر إلى عينيها، قلت : لن أستطيع لمس أناملها ثانية، قلت : لن أتمكن من محادثتها أبداً، كانت تكتب كل كلمة بسرعة مذهلة، تكتب بجد بسرعة بحذاقة، تكاد تدون الكلمة قبل سماعها، قبل النطق بها، تعرف كل ماسيقال.

سحبت قدمي، مرة أخرى ثمة تماس، لا أعرف؟ هل هي حركة لا شعورية مني أنا؟ هل هي حركة إرادية منها؟

لا أعرف؟ ولكن الآن ثمة تماس بل احتكاك، فرس تحك جيدها بعنق حصان.

حذاؤها الناعم الرقيق يسقط من قدمها الرشيقة، وريقة تسقط من غصن شجرة فوق جدول ماء، قدمها تتحرر، أسمع صوت وقوعه على الأرض، لم يسمعه أحد سواي، يسقط على الأرض وهم يضحكون، يقهقهون عالياً، صوت وقوعه يتجاوب مع صدى قهقهاتهم، انتهوا من المفاوضات والمباحثات، اتفقوا على كل شيء، انتهت الهمهمات والهسهسات، الآن يتبادلون الطرائف، يدخنون، ويضحكون، اثنان فقط في الواقع هما اللذان يتكلمان ويضحكان ويقهقهان، المدير والمدير، مديري ومديرها، المعاونان لا يتكلمان، ولا يضحكان، يستمعان فقط، ويكتفيان بالابتسام، ربما يخبئان الضحكات والقهقات إلى ما بعد خروجهما من الاجتماع، أو ربما يخبئان الضحكات إلى اجتماع آخر يكون فيه كل منها هو المدير .

عليَّ أن أحرر قدمي من حذائي، حذائي أسود كبير ثقيل، ماذا لو سقط على الأرض الملتمعة وأصدر صوتاً وتجاوبت له الأصداء؟ بمقدمة فردة الحذاء في قدمي اليمنى أدفع مؤخرة الفردة في قدمي اليسرى، وينخلع الحذاء، يترنح في قدمي ثملاً، ثم يتهاوى ببطء ويسقط.

أصابع قدمي اليسرى وهي داخل الجورب تتحسس أنامل قدمها، أناملها عارية من غير جورب، أصابعي داخل الجورب، أنامل قدمها تعزف على قدمي، خدر ناعم لذيذ يسري من طرف أصابعي ليتغلغل في الأعضاء كلها، شجيرتان تقاربت منهما الأغصان، فتلامست وتهامست، أغصان ناعمة أثقلتها الثمار فدنت من صفحة جدول فندت ذؤاباتها مويجات ناعمة، أنامل تداعب أوتار بيان، أصابع طفلة ترسم بالطبشور أشكالاً وألواناً على جدار، بطة ناعمة تنساب على وجه بحيرة هادئة، دفء ناعم لذيذ ينساب من أناملها إلى أناملي، تغذيني بدفئها، تنقل إليَّ دمها، تشحن

جسمي كله بطاقة من أصابعها.

بالإبهام تمس إبهامي، ثم تمسح به رؤوس الأنامل كلها، تمررها تمريراً سريعاً، ثم تمس بالإصبع الصغرى إصبعي الصغرى، تنقلها إلى الكبرى، ثم تمررهاعلى الأصابع كلها، ثم تضع أصابعها الخمس فوق أصابعي، ترفعها، تضعها أسفل منها، تفرج ما بين الإصبع الكبرى والإصبع التالية، تمسك بهما طرف إصبعي الصغرى، تتركها، تجمع أصابعها، تضم بعضها إلى بعض، كأنها بطة، تدفع قدمي، تدفعها مرة، ثم تدفعها مرتين، ثم تدفعها مرة، تعيد الحركات بالإيقاع نفسه مرتين، أي أبجدية تلك؟ أي حوار؟ الأنامل تتكلم، تعزف لحوناً تغني ترقص، أنا أحلق أطير في فضاء رحب، في كون واسع جميل، لا جدران ولا أبيض ولا أسود ولا مكيف ولا مدير، فليكن مايكون أنا وهي هنا ولا شيء سوانا.

غداً أحدث صديقي أبو جميل، السكرتيرة هي الحياة، قدمي تحت المائدة عانقت قدمها، وفي المصعد قبلتها، آه لو تراها، تذوب بين اليدين مثل السكر الذي يدوِّره ذلك الرجل في وعاء، لا أعرف كيف؟ فيغدو كالقطن الناعم، يحبه الأولاد، من لمسة يذوب، يسمونه غزل البنات، هل تعرفه يا أبو جميل؟ هي كذلك، من لمسة تذوب، ثم دعتني إلى مطعم فاخر، تناولنا الغداء، بل أنا دعوتها، تعويض الاجتماع دفعته ثمن الغداء، ولكنه لا يكفي لمطعم فاخر، هناك مطعم صغير متواضع، تناولنا فيه الغداء، أنا دعوتها، وهناك دخنت بقية السيكار، لم أدخن في البيت، ولم أتناول طعام العشاء مع زوجتي، ولا سهرت إلى الفجر معها، نمت فور وصولي إلى البيت لأحتفظ بشذى لقائي مع السكرتيرة، وفي الحلم رأيتها، نعم، ورأيت الرجل وهو يدور السكر في وعاء، مثل القطن، نعم، هكذا أجمل، وليمت أبو جميل بغيظه.

ينهض المدير، تنهض السكرتيرة، ينهض مديري، أنهض أنا، ينهض الجميع، يشير إليَّ مديري بعينه، لا أعرف كيف أتصرف، الفنجان أمام السكرتيرة في موضعه، لم تمسه، لم تأخذ منه رشفة واحدة، كم أود لو أغمس فيه بقايا عشر سكائر، لا سيكارة واحدة، أدس قدمي في الحذاء، وأمضي، الكبار بعضهم يودع بعضهم الآخر، يتصافحون، يتعانقون، من سأودع أنا؟ أخرج إلى الردهة، أين السكرتيرة؟ كيف اختفت؟ أنظر في اللوحات المعلقة على أبواب الغرف لعلي أهتدي إلى مكتبها، أسمع صوت مديري والمدير يودعه، أتجه إلى المصعد، خادم المصعد، يعتذر إلي، يهمس: " أنا آسف، المصعد محجوز، سينزل فيه الآن المدير وضيفه، إذا شئت فانتظر"، كيف أنتظر؟ أتجه إلى الدرج، أهبط عليه، خارج المبنى أشير إلى سيارة أجرة، أطلب من السائق أن يسرع بي إلى مديرية التصدير، عليَّ أن أعد محضر الاجتماع، يجب أن يراه المدير فور وصوله مطبوعاً على الحاسوب، ليرسل نسخة منه بالفاكس إلى الوزارة قبل انتهاء الدوام.

في مكتبي يرن الهاتف، آخذ رشفة من فنجان القهوة الأسود الذي أعددته بنفسي، أمتص السيكارة، أرفع السماعة، يأتيني صوت أنثوي ناعم، هي هي من غير شك، تسألني:

ـ هذه أول مرة تحضر فيها اجتماعاً رفيعاً بهذا المستوى؟

نظرتها حادة تجرح، ولكنها حلوة ناعمة، أرد :

ـ نعم، بلغت الخمسين، أمضيت ثلاثين عاماً في هذه المديرية العتيدة، ولم أحضر من قبل مثل هذا الاجتماع، ما المشكلة؟

ـ هل تمزح أم هل، لا أعرف ماذا أقول؟

ـ صدقيني، أنا لا أمزح.

ـ هل لا حظت أنك تركت الأوراق أمامك فارغة، ولم تسجل حرفاً؟

أنفث دخان السيكارة بهدوء، دخان سيكارتي يلفُّ شعرها الأشقر، يغطي قميصها الأبيض، يتغلغل مابين النهدين، يطغى على عطرها الناعم، أردّ :

ـ هذا الأمر خاص بي، اطمئني، أنا الآن وراء الحاسوب أعدُّ التقرير مفصّلاً.

ـ والأرقام؟ وأرقام الحسابات؟ وعناوين الشركات؟

آخذ رشفة من فنجاني الأسود، أحس الطعم المر اللاذع، أبتلع الرشفة بهدوء، كأنني آخذها من فنجانها، أقول:

ـ كلها هنا محفوظة في الدماغ ؟ وإذا احتجت أنت إلى أي رقم نسيت تسجيله فاسأليني؟

تهتز غضباً، ترتعش مثل فراشة، أعشق نزقها، تصيح:

ـ اطمئن، لن أسألك ولن أحتاج إليك.

أرد بهدوء:

ـ أرجوك، أنا من يجب أن يغضب منك، لا أنت.

ـ ولم تغضب مني؟ أنا لم أخطئ مثلك في شيء.

ـ بل أخطأت، خرجت أبحث عنك لأودعك فلم أجدك؟ كيف نفترق هكذا من غير موعد؟

ـ موعد أي موعد؟ نحن في اجتماع عمل؟

ـ ومداعباتك، بلمسات قدمك الناعمة؟

ضحكاتها تنطلق سرب غزلان يملأ الآفاق، كل شيء منها جميل:

ـ كنت أنبهك؟

ـ كيف، لم أفهم؟

ـ نبهتك أول مرة بدفعة من حذائي في حذائك، ثم نبهتك بأصابع قدمي، والغريب في الأمر تماديك، حتى إنك خلعت حذاءك، فاضطررت إلى قرصك بأصابع قدمي؟!

ـ ولماذا هذه التنبيهات الناعمة؟

ـ ألم تلاحظ أنك كنت تنفض رماد سيكارتك في الفنجان، ثم تمضي فيما هو أسوأ، فتغمس بقية السيكارة في الفنجان؟

أخرج من البحيرة مبلل الثياب، أسألها غير مصدق :

ـ أنا؟

ـ نعم أنت، ولم تدخن سيكارة واحدة، بل ثلاث سكائر، ولا أعرف ما نوع سكائرك، كم هي ثقيلة؟! أبغض شيء لدى مديري رؤيته الموظف وهو يدخن.

أفتح عيني، أنظر إلى علبة التبغ الملقاة على المكتب أمامي، أحملها، أخضها، أحدق فيها، فعلاً، تكاد تفرغ من السكائر.

ـ ولكن أنت تدخنين؟

ـ وكيف عرفت؟

أفرح، أمسكت الفراشة، جناحها رقيق، أقبِّلها.

ـ رأيت علبة التبغ في حقيبة يدك عندما فتحتها لاستخراج قلمك.

ـ ولكن أنا لا أدخن في اجتماع عام.

ـ ومارأيك بالتدخين في اجتماع خاص؟

الفراشة تدغدغ راحة كفي، أهمس لها:

ـ اليوم مساء الساعة السابعة في مقهى نجمة الميدان على الناصية ومن علبة تبغي مع فنجان قهوة أسود يقدمه

لنا أبو شفيق؟!

ـ ولكن نحن مدعوون اليوم مساء الساعة السابعة إلى المطعم الصيني في الشيراتون، ستذوق طعاماً طوال عمرك لم تذق مثله لا أنت ولا زوجتك؟

ـ وما علاقة زوجتي؟

ـ الدعوة موجهة إليك وإلى زوجتك، بعد كل اجتماع من هذا النوع لا بد من دعوة، هذه هي العادة.

أنفث دخان السيكارة، أمتص من شفة الفنجان آخر ماتبقى فيه، أقول:

ـ ولكن الفنجان الذي يقدمه أبو شفيق لن تجدي له مثيلاً.

ـ هذه دعوة رسمية، لا بد من حضورها، إذا لم تأت فمديرك نفسه سيغضب، قد يحرمك تعويض الاجتماع، وقد لا يدعوك مرة ثانية إلى أي اجتماع.

في الساعة السابعة مساءً، أتخذ مكاني على الرصيف، عند الزاوية، السيارات والحافلات والشاحنات تلف أمامي، ضجيجها الصاخب يسلّيني، أغرق فيه، لا أحس شيئاً، أبو شفيق يحضر منضدة حديدية صغيرة صدئة، قوائمها الثلاث تتقلقل على الرصيف الذي حفر يوم أمس، أبو شفيق يثبتها، وهو يحييني:

ـ أهلاً أستاذ علاء.

يهم بالمضي، فهو يعرف طلبي، لكنني أستوقفه، قائلاً:

ـ هات فنجانين.

أرتشف القهوة السوداء المرة، أمتصها حارة من شفة الفنجان، يغزوني العبق الحريف اللاذع، أنفث دخان سيكارتي، أصنع دوائر تدور كالأفلاك، أصنع سحابات سديمية تتكون منها شموس وأقمار، وجهها الطفولي يشرق،

تمد إلـيَّ يـدها، ألثمهـا، أشكر لـك مجيئـك، كنـت متأكـداً مـن حضورك، جميل قميصك الأبيض، تتألق الزهرات الناعمة فيـه، شعرك الأشقر يتنسم عبق سكائري، دخاني اللاهث يغل في فتحة القميص، أناقتك الناعمة تذوب كقطرات الندى في فنجاني الأسود، الدخان ههنا أحلى، والصخب أجمل، فلتتطاير كل الأوراق، وتعساً لذلك النادل المؤنق، عاش أبو شفيق، أرأيت إلى الظلال هنا كم هي دافئة؟!، أرأيت إلى الصخب كم هو حنون؟! بالله عليك، أليس أجمل من هسهسة المكيف؟! أرأيت إلى القهوة هنا كم هي مرة وحارة ولا ذعـة، لا أحبهـا إلا لاذعـة، وأنـت كـم أنـت رائعـة، كيـف جئت؟!، مجيئك وحده الحياة.

أبو شفيق يظهر فجأة أمامي بقامته القصيرة وحركته الرشيقة، يسألني:

ـ أي خدمة أستاذ علاء؟

ـ كم الساعة؟

ـ الحادية عشرة، وبضع دقائق، الآن كنت في الداخل أستمع إلى الأخبار، هل أحضر لك، أستاذ، جريدة المساء، كنت أقرأ فيها أحدث مقالة عن العولمة، هل أحضرها لك؟

أرد :

ـ كيف سأقرأ وأنا في الظل؟

يعلق، وهو ينظر في الفنجانين :

ـ يبدو صاحبك نسي الموعد، التمس لـه العذر.

أنهض مستاء، وأنا أقول:

ـ بل جاء، ولكنك يا بائس الحظ، ما رأيته.

يعلق وهو يحمل المنضدة الحديدية الصغيرة الصدئة:

ـ هذا صحيح، كيف سأراه أنا هنا في العتمة.

أنفحه بضع ليرات زيادة على عطائه المعتاد، يمضي في إثري بضع خطوات، يودِّعني هاتفاً كأنني المدير العام:

- شرفتنا، علاء بك.

لا أعرف كيف تهبط عليَّ فجأةً أصداء نبيل شعيل وهو يشدو: " ما أروعك..."، أحس بها تحيط بي مثل هالة، وأنا أمضي على الرصيف.

هل أنهض؟

أمدُّ يدي إلى المذياع، أقفله، هل أستطيع العودة إلىالنوم؟ طوال الليل هو إلى جانبي، أعانقه، أتنسم أغانيه وأخباره، إلى أن أدخل في عتمة النوم، فلا أسمع لـه حِسّاً، ويظل هو يغرد أو يجرش كحجر الطاحون، كم أتمنى لو أصحو على صوت فيروز، ولكن لا أصحو إلا على نشرة أخبار.

هل أنهض؟ أحس برغبة قوية في التبوُّل، ولكن أشعر بمتعة في حبس الرغبة، لن أنهض، وإذا نهضت فماذا سوف أفعل؟ لن أذهب اليوم إلى العمل، لن أحلق ذقني، لن أشرب فنجان قهوتي، لا لشيء، هي مجرد رغبة في الكسل.

سأبقى في الفراش، أرفع الغطاء فوق رأسي، النوم لذيذ، الكسل ممتع، لا أريد تحريك أعضائي، فليتبلّد جسمي، خرقة بالية عتيقة أنا، جورب رخو ملقى تحت السرير، لتمتلئ الغرفة برائحة النوم.

قعقعة الكؤوس وعبق الشاي ورائحة الجبن المسخن وصخب الأولاد وهم في المطبخ يضجون، إيقاع يغزوني كل صباح، يتخلله صوت زوجتي يتسرب إليَّ وهي تعد لهم الإفطار قبل الذهاب إلى المدرسة، هذه هي عادتها، تغط في

النوم فور استلقائها في السرير، لاتبالي بي ولا بالمذياع، وأنا أتقلب من جنب إلى جنب، وشعرها المشبع بروائح المطبخ يغزوني، تصحو قبلي وتمضي إلى المطبخ، حتى المذياع وهو يجرش، لا تقفله ولا تثبته على محطة، تسرع إلى المطبخ، أتلمس موضعها في الفراش، أحس دفئها، أشم رائحة شعرها على الوسادة، ولا أجدها.

النوم لذيذ، والكسل ألذ، أرقَ مرة أحد الملوك، هكذا حكت لي جدتي، فذهب إلى مشفى المجانين ليتسلى، فسأله أحدهم: متى تجد لذة النوم؟ فأجابه الملك: عندما أكون متعباً، وينتابني خدر النعاس، فلا أستطيع مغالبته، فردَّ المجنون: أنت في مرحلة ماقبل النوم، ولم تدخل فيه؟ ففكّر الملك، ثم أجاب: أحس لذة النوم عندما أكون غارقاً في النوم، علّق المجنون: ولكنك نائم، ولا تحس بشيء؟ ففكّر الملك ثم أجاب: إذن، عندما أستيقظ بعد نوم عميق، علق المجنون: ولكنك فارقت النوم، فكيف تحس بمتعته؟!

ليت ذلك الملك يلتقيني ليسألني، أنا على كل حال لن أنهض، سأبقى إلى صباح اليوم التالي، لا، ليس عن حزن ولا قهر ولا سأم ولا غضب، ليس انتقاماً من زوجتي ولا من أولادي ولا من مديري، لا لأجل أي شيء، لا لأجل أحد، لأجل الكسل وحده، لن أنهض.

مرة رأيت ولدي أمجد، وهو لا يستطيع أن يصحو من النوم، النوم يغلبه، يكسر جفنيه، وأمه تداعبه، تمسح وجهه، تقبل عينيه، تمد يدها إلى مابين فخذيه، تقول له: أين الحمامة؟ طارت الحمامة، تماماً مثلما كانت أمي تفعل، وأنا في عمر أمجد، كم النوم لذيذ، لونهضت أمي الآن من قبرها، أو جاءت زوجتي وفعلت مثلما كانت أمي تفعل، أو مثلما تفعل هي مع ولدي أمجد، فلن أنهض.

- لا تدخلي عليَّ ثانية أرجوك، لست مريضاً، لست في إجازة، لن أنهض، أنا مسرور، أنا مرتاح، فقط أريد أن أبقى في الفراش.

هكذا أقول لزوجتي، فتخرج.

لست كالخلد، أختبئ في حفرة، لست كالدب، أدخل في بيات شتوي، لست كالسرطان، أختبئ في قوقعة، لست كالسلحفاة أختبئ في حجرتي، لست كالخفاش أنام معلقاً طوال النهار، لست نحلة ولا فراشة، أنا هو أنا.

لا ريش لي ولا جناح، حتى أطير، لاقدم لي ولا رجل، حتى أسير، أنا كتلة لحم، كالوليد، ألتف على نفسي، أتكور، بعضي يدخل في بعضي، أثني كلتا رجلي، ألصق فخذي ببطني، أحني ظهري، أثني كلتا يديَّ كأنني أصلي، أضم بعضهما إلى بعض، أضعهما بين فخذي، أود لو ألصق رأسي بصدري، مختبئ أنا في داخلي.

لا شأن لي بأحد، لا أحد له شأن بي، منقطع عن العالم أنا، لا فكرة لا قصة لا خبر، لست موظفاً لست أباً، لست زوجاً، أنا لا أشرب، أنا لا آكل، هكذا سأبقى، شهراً أسبوعاً، يومين، يكفيني يومان، ولكن لماذا لا أبقى هكذا سنة، لتكن سنة، أو تسعة أشهر، تكفيني تسعة أشهر.

كأنني داخل في غيمة مثل ملاك يهبط من السماء، بل يرقى إلى السماء، كالهواء، أدخل في الهواء، هواء أنا، لا لست ملاكاً، ولا هواء، أنا هو أنا، لكنني متكاسل، هذا هو الأجمل، زوج أنا وأب وموظف وكاتب ورجل يأكل ويشرب، لكن لن أفعل اليوم شيئاً، سأبقى في الفراش.

الفراش جميل، وأجمل منه اللحاف، الفراش يحتويني، اللحاف يغطيني، محاط أنا داخل شرنقة من حرير، لا داخل حافلة مكتظة وسط آلاف الأجساد المتعرقة في شارع مختنق بالسيارات والسخام والهباب والزحام، لا، لا ، لا سيارة ولا حافلة ولا حرير ولا شرنقة، لست دودة قز، مرة أخرى أنا هو أنا، متكاسل في فراشي.

هي حالة إبداع لم أعش مثلها من قبل، لم أنم، ولن أنام، لم أستيقظ، ولن أستيقظ، أنا فيما هو أمتع من النوم، وأجمل من اليقظة، أنا في برزخ بينهما، أنا بين بين، أنا في حالة العدل الوسطى، ناقظ أنا، هل يصح هذا النحت؟ نائم

ومستيقظ، النحت منهما ناقظ، هذا هو الإبداع، أنا في حالة إبداع، لكن لا، كلمة ناقظ غير جميلة، تذكرني بكلمة ناعظ، لا، لا، لا أريد أن أفكر، لا أريد أن أنحت، لا أريد أن أعمل، لن أشتق ولن أنحت، فقط دمي هو الذي يجري في العروق، قلبي وحده يدق، ولا شيء آخر، بل ليتني لا أحس بدمي ولا بقلبي.

شاشة تلفاز لا إرسال فيه ولا محطة ولا قناة، هكذا أنا، مرآة صافية متألقة لا تعكس شيئاً أبداً هكذا أنا الآن، بل ثمة ماء غزير يتدفق على سطحها، يسح سحاً، ماء يسح على وجه مرآة فلا شيء ينعكس على وجهها، هكذا أنا.

أنا في أقصى نقطة من لقاء السماء والبحر، حيث لا شيء سوى الماء والسماء، أنا في مركز القطب، في بؤرة منبع ضوئي، في عين المصباح، في عين الإعصار، في عين الصفر المدور، في مركز الدائرة، في مركز الانفجار النووي، في قلب قبر مفتوح، في قلب قلب مفتوح.

لا كل هذا غير صحيح، أنا أمارس فعل الكسل عن وعي وقصد، أنا متكاسل، أنا أحس دفء الفراش، دفء الغطاء، أحس برغبة قوية في التبوّل، ولكن أحبس هذه الرغبة، فأشعر بألم ممتع، أو بمتعة من نوع آخر.

باب الغرفة يفتح، جاءت زوجتي مرة أخرى لتوقظني، أحس حفيف ثوبها ووقع خطواتها، وقد انتعلت حذاءها ذا الكعب العالي، يغزوني عطرها الخاص الذي تضعه دائماً قبل خروجها، تدنو مني، ترفع الغطاء، صوتها يكشط جلدي:

- انهض، لا تتكاسل.

أصابعها تتغلغل في شعري، تعزف على نقرتي، تدغدغ عنقي، أنفاسها على أذني، هل هذا كله من أجلي أو من أجل عملي، من أجل اللقمة والعيش والراتب، كي لا أتأخر عن عملي، فيحسم من راتبي؟!

لن أنهض، أحس الآن بذاتي، أشعر أني موجود، هنا مملكتي، مديري له مكتبه الفخم، وسكرتيرته الجميلة، جاري له سيارته، يقعد وراء المقود، ينطلق تحت المطر، المسجلة إلى جانبه، النغم ينساب مع الدفء، والمطر يسح في الخارج، وأنا هنا في مملكتي، لن أنهض.

من البيت إلى المكتب أحتاج إلى ساعة ونصف الساعة، لا بد من وسيلتين للمواصلات، وزحمة المرور خانقة، لابد من أن أصل متأخراً، لا بد من توبيخ المدير أو معاونه أو رئيس الحركة أو البواب، حتى البواب سوف يرميني بنظرة عتاب لتأخري، وماذا بعد، فليحسم راتب يوم، إذا بقيت في الفراش فسوف أوفر أجرة المواصلات وثمن عشرة فناجين قهوة وثمن الجريدة.

سأبقى في الفراش، لن تتوقف الأفلاك عن دورتها، المراجعون سوف يسألون عني، وسيلحقون بي الشتائم واللعنات، سواء أكنت غائباً أم حاضراً، وصديقي زميل العمر والعمل الصديق الأعز والأقرب سيغتابني لدى المدير، سينم له علي، ماذا سيحصل إذا غبت يوماً وما ذا سيحصل إذا التحقت بالعمل؟!

هناك أيام أعياد كثيرة، للشجرة وللطفل وللأم وللأب وللحب وللربيع وللشتاء وللقمر وللشمس، واليوم عيدي، عيدي أنا، لا، ليس عيد الموظف، ولا عيد الأب، ولاعيد الزوج، ولاعيد الرجل، هو عيدي أنا، ولكن، من أنا؟! لاأحلم في أن أكون همزة فوق الألف، ليتني نقطة واحدة تحت الباء.

مرة أرسلني أبي إلى صلاح البقال، لشراء نصف كيلو من السكر، قال لي: " ليس عندي سكر"، عرضت عليه المبلغ نقداً، طردني، مؤكداً أنه لا يبيع السكر، رجعت إلى أبي وأنا أبكي، سألني: " هل قلت للبائع السكر لأبي الحاج محمود؟ "،

قلت : " لا، بل قلت لـه: السكر لـي أنـا، أنـا"، ضـحك أبـي، قهقه عالياً، ثـم قـال لـي: " ومـن أنـت، هيـا عـد إليـه، وقـل لـه، نصف كيلو من السكر، لأبي الحاج محمود ".

خمسون عاماً وأنا أستيقظ كل صباح، لا بد أن أذهب إلـى المدرسـة، لا بـد أن أتنـاول طعـام الفطـور، لا بـد مـن المربى، وأنا طفل، والآن لا بد، وأنا كهل، من فنجان القهوة وحبة السكرين.

أنا ألعن النملة التي ماتزال تحمل حبة القمح إلى أعلى الصخرة الملساء فتسقط منها، ثم تعيد حملها، وما تزال طوال أشهر الصيف تعمل كي تعيش في الشتاء ولا تجوع، أنا أبارك صرصور الحقل الذي يمضي أشهر الحصاد في الرقص والغناء، لا يبالي الجوع والعطش، حسبه أن يرقص ويغني مع نسمات المساء تحت ضوء القمر في الصيف وليأت بعد ذلك ألف شتاء، ليموت أو يحيا لا يهمه، سواء بسواء.

ولكن واحسرتاه، مارقصت في صيف ولا غنيت، ولا ادخرت شيئاً للشتاء، لا، لا ندم، حسبي أني هنا، هنا في كهفي في العتمة، هنا العتمة تحت اللحاف، فوق الفراش، هي الرحمة، هي أرحم من الصيف والشتاء، ومن دفء السيارة ومن نعومة كرسي المدير وليونة صدر السكرتيرة، هنا أنا ملك الزمان.

ـ أرجوك أبعدي يدك عن عنقي، لن أنهض.

رغبتي في التبول تزداد ولكني أحبسها أمنعها، أجد متعة لا أعرف نوعها ولا طبيعتها.

ـ ولاأريد سماع شيء، أرجوك، أقفلي المذياع.

ـ أنت تحب فيروز، سأبحث لك عن محطة فيها فيروز.

ـ لا أحب فيروز ولا أم كلثوم ولا صباح فخري، أرجوك.

منذ خمسين عاماً وأنا أسمع فيروز تغني:

يارفيقي نحن من نور إلى نور مضينا
ومع الفجر ذهبنا ومع النجم أتينا
أين ما يدعى ظلاماً يارفيقي أين؟
إن نور الله في القلب وهذا ماأراه
سوف أحياسوف أحيا

فيروز تحيا، وأنا أحيا، وكلنا نحيا، ولكن في ظلام، هذا هو الواقع، لو كنا نحيا في النور لما غنت لنا فيروز، لكانت اشتاقت إلى الظلام، أنا أعرف، ولكنها تريد أن تشجعنا، تريد أن تداوي جراحنا.

يدها الدافئة الناعمة مثل يد أمي وأنا طفل تزحف بهدوء ساحر إلى مواضع أخرى بعيدة، رغبتي في التبول تنفجر.

أرفع اللحاف عن وجهي، أهتف:

ـ أرجوك اتركيني.

ـ قم، انهض، لترى ماذا فعل ولدك أمجد؟

أرفع اللحاف فوق رأسي وأنا أغمغم :

ـ أعرف، لا جديد، بال في فراشه، اتركيه نائماً، ليغب اليوم عن المدرسة.

ترد بهدوء:

ـ لا، انهض لترى ماذا فعل؟

أسأل وأنا تحت اللحاف:

ـ وما ذا فعل؟

ـ ملأ حقيبته بالحجارة، قال إنه يريد الذهاب إلى القدس.

ليذهب إلى القدس، ليذهب إلى قانا، ليذهب إلى جنين، ليذهب إلى أي مكان، كان الله معه، مع السلامة، اذهبي أنت

وهو، أنا هنا باق، لن أذهب.

وَقْعُ حذائها ذي الكعب العالي يصك كياني كله، وهي تمضي، تغلق الباب وراءها، الآن سأنام، ليتني ألتقي الملك أو المجنون لأحدثهما عن لذة النوم.

أنا سلحفاة وأرنب وعنكبوت وسرطان، هنا قوقعتي، هنا مملكتي، العتمة أجمل، الظلام أجمل، الحياة كلها ظلام، من عتمة الرحم إلى عتمة القبر نرحل، لكن لماذا أكذب على نفسي، أنا أعرف، النور موجود، النور هو الأجمل، هو الأبقى، لكن لا أعرف، أكاد أجن، ماذا أقول؟ الكل يعرف كل شيء ولا أحد يفعل، أين النور؟ مامعنى أنا أو أمجد؟! الأطفال وحدهم يدفعون الثمن، أكلنا الطعم صغاراً وهاقد وقعنا في الفخ، لا تكذب، لا تسرق، لا تكسل، من جد وجد، ومن سار على الدرب وصل، وكثيرون وصلوا من غير أن يسيروا، العلم يرفع بيوتاً لاعماد لها، وكثير من البيوت رفعت من غير علم، والعلم لم يرفع أي بيت.

أمد يدي إلى المذياع، أفتحه، المذياع وحده يفعل، يغير كل شيء، المذياع يعلن نشرة الأخبار الأولى لفترة الصباح، حسبت أنني بلغت العصر، أو تجاوزت الظهيرة، للثامنة أمامي بعض الوقت، يمكنني أن ألتحق بالمكتب، ولو تأخرت قليلاً، يمكن أن آخذ سيارة أجرة.

هل أنهض؟

صورة القطّـة

أفك حزام الأمـان، أرجـع بالمقعـد قلـيلاً إلـى الـوراء، أستلقى فيه، ألتفت الى النافذة.

هل يسـتطيع البلبـل أن يحلـق إلـي هـذا الارتفـاع؟ ليتـه يسـتطيع، كيـف سـيتدبر أمـر عيشـه الآن وهـو المعتـاد علـى الدخن الناعم، من أين سيلتقطه؟ كيف سينام على الأغصان؟ أي تشـرد هـذا؟ وهـو المعتـاد علـى دفء الغرفـة؟ ألـن يقتلـه البـرد؟ مـن سـيؤنس وحشـته، وهـو المعتـاد أن أكلمـه كـل صـباح؟ أغسـل قفصـه، أبـدل المـاء، أضـع لـه دخنـاً جديـداً، أقسم تفاحة جديدة، أقطع جنحاً منها، أثبته بين القضبان، أين لـه الآن التفاح ؟.

تحت الثلج المنهمر نزلت مرة إلى السوق، كدت أسقط علـى الرصـيف، لأجلـه نزلـت، لأشـترى نصـف كيلـو تفـاح، أربع تفاحات فقط، لم آكل منها أي واحدة، احتفظت بهـا فـي الثلاجـة، خبأتهـا لـه، واحـدة فقـط أعطيتهـا لحفيـدتي، هـل سيسقط في يد أحد؟ هل ستتسلق إليه فـي الليـل قطـة لتنشـب فيه مخالبها، وهو نائم على الغصن؟

السـيدة العجـوز إلـى جـواري، أحـس بهـا تفـتح حقيبـة يدها، تنظر إلي شيء ما في داخلها تستله قليلاً، تنظـر إليـه، ثم تقفل الحقيبة، هي من غير شك مرآة صغيرة، تطمئن إلى

كحلها، وجهها هادئ، من غير زينة، ولكنها منذ إقلاع الطائرة قبل عشر دقائق، فتحت حقيبتها مرتين أو ثلاثاً.

أبى ولدي إلا أن يحجز لي مقعداً في الدرجة الأولى، لا أحب الدرجة الأولى، أحس فيها أنني وحدي، في الدرجة السياحية أحس أني مع أناس كثيرين، ليته اعتنى بالبلبل بدلاً من أن يعتني بي، البلبل أحب إلى نفسي من نفسي، " أبي اعذرني، أنا لاوقت لدي، الشركة والاجتماعات والأعمال الكثيرة والمسؤوليات والسفر، لا أستطيع أن أستيقظ كل يوم لأبدل الماء وأضع له طعاماً جديداً، أخشى أن أنساه يوماً.. " هكذا أخذ يعتذر إلي، ولم تكن زوجته بأفضل منه، قالت لي : " ياعمي، أنت قلت إن رائحة الطعام تؤذيه، إن لم أضعه في المطبخ فأين سأضعه؟ وأنا لا وقت لدي، أخرج إلى الوظيفة في الصباح الباكر، ولا أعود إلا بعد الثالثة، فأغرق في المطبخ، وهو بحاجة إلى من يرعاه، ولدي سامح لا أعرف كيف أتدبر أمره، إذا تأخرت السيارة التي تحمله إلى الروضة بضع دقائق، توترت أعصابي، فاضطر إلى توصيله في سيارة إجرة، نصف راتبي أنفقه على الروضة وسيارات الإجرة.." واستمرت تثرثر وتثرثر، ماذا سيكلفها طعام البلبل؟ أنا كنت سأشتري لها خمسة أرطال من الدخن، ولكن أعرف، هي لاتريدني ولا تريد البلبل.

جارتي العجوز، تغلق حقيبتها، لا شك أنها قد اختلست نظرة إلى المرآة، ماذا؟ هل سنمضي خمس ساعات هكذا صامتين، في البيت لا أحد يكلمني، أقعد في الشرفة وحدي، أضع القفص على الحافة، في الشمس الدافئة، آتي بجنح تفاحة، قبل أن أثبتها بين القضبان، أمد له إصبعي فيداعبها بمنقاره الناعم، يدغدغها، ثم يمضي فيرسل الألحان، يشدو، يرجِّع النغم، يقطعه، ثم يرسله رهواً، يمده، ثم يعيد تقطيعه، يهدأ قليلاً، ثم يعيد إرساله عالياً وهو يمده ويمده ثم يقطعه فجأة، ينقر في التفاحة، يطري بها حنجرته، ويعود إلى

التغريد، وهو ينظر إليَّ بعينه السوداء الملتمعة، وريشه الأصفر يأتلق في الشمس ويشع مثل الذهب، مثل حقل حنطة، مثل شعر حفيدتي رجاء، والوفرة من الريش الناعم في عنقه تقبُّ وتنتشر ثم تهمد لتقب ثانية، لا تعرف أنشوان هو أم غضبان؟

حفيدتي رجاء، قالت لأمها: " ماما أريد البلبل، جدي سيسافر، ضعي البلبل في غرفتي، أنا سأعتني به " قالت لها أمها: " لا، يا ابنتي، الطيور في البيت مؤذية جداً "، ردت البنت " ما هذا ياماما، لا قطط ولا عصافير، حتى صورة القطة رأيتها مرة معي فمزقتها " وتتكلم ابنتي الدكتورة أمل: " أنت لا تعرفين، في ريش الطيور وشعر القطط أبواغ، تطير في الهواء، تدخل مع التنفس إلى الرئتين، لتستقر في الحويصلات الهوائية، فتسدها، يجب أن أصارحك وإن كنت بعد مازلت صغيرة، تأثير هذه الأبواغ في البنت أكبر من تأثيرها في الشاب، وأذاها لا يظهر إلا عندما تكبر البنت وتتزوج، ولا سيما في أثناء الحمل "، أحسنت أيتها الدكتورة، حقاً، أنت طبيبة ماهرة، وأم شاطرة، ولكنك ابنتي ولا أستطيع أن أصفك بأي صفة تؤلمني، فأنت الأحب إلى قلبي، عندما تضعين السماعة على صدري، أو تقيسين ضغطي أنسى كل شيء.

والسيدة العجوز ماتفتأ تفتح حقيبتها وتغلقها، تنظر إلى المرآة فيها، ولكنها لا تمسح شعرها ولا تسوي حاجبها، فقط تكتفي بالنظر إلى المرآة، تختلس النظر إليها اختلاساً، هل أحدثها عن البلبل؟ عندما قعدت بجواري، ألقت السلام بهدوء، حتى إني لم أسمع ماذا قالت، مساء الخير أم صباح الخير، هل أبادرها الكلام، هل عندها بلبل وقد تركته مثلي؟ كيف أسألها؟

المضيفة تؤدي عملها برتوب، تحيي، تبتسم:" قهوة أم

شاي "، " شاي بدون سكر، إذا سمحت"، وأضع الفنجان على المنصة الصغيرة أمامي، جارتي العجوز تشرب الشاي مثلي، ولكني أراها تحرك السكر فيه.

أقول لابنتي: " ولكن يا أمل؟ أنت ولدت ونشأت وكبرت وهذا البلبل كان في البيت، أنت وكل من أخويك عماد وأمجد، مامرضت لا أنت ولا أحد من أخويك؟ " وترد: " بابا، هل نسيت، نحن عشنا في دار مفتوحة واسعة، فيها فناء كبير، والبركة في وسط الفناء، وشجرة التوت الكبيرة تغطي البركة" أقاطعها: " آه، والشجرة مملوءة بالعصافير والحمام والزرازير والأعشاش حتى الغربان كانت تنام فيها، وما رأينا الأبواغ ولا سدت رئتي ولا رئة أحد من إخوتك" وتعلق: " هل نسيت ياأبي، تلك الدار كانت مفتوحة، والهواء فيها متجدد، والسماء فيها واسعة، نحن الآن نعيش في دور مغلقة، اختلفت الحياة ياأبي، تغيرت طرز العيش"، وتصمت ثم تتكلم وهي تضحك: " ولا تنس أنك رزقت بأمجد في هذه الدار، ولا تنس أيضاً أن هذا البلبل ليس هو ذاك البلبل الذي عاش معنا، ذاك مات الله يرحمه، هذا اشتريته أنت منذ ثلاث سنوات، أو خمس".

هل أحكي للعجوز عن دار أبي؟ عن أيام الشباب؟ عن البلبل الذي اشتريته وهو فرخ صغير، وزارني صديقي علاء، قال لي: " هذا لم يدرس، وإذا تركته هكذا فلن يتعلم الغناء، قد يصفّر، ولكنه لن يجيد الغناء"، قلت له وأنا أضحك: " كيف يمكن أن يدرس؟ وإلى أي مدرسة سوف أرسله؟ " أجابني بجد: " غداً آتيك بالأستاذ"، وفي اليوم التالي جاءني بقفص مغطى بقماش أبيض نظيف، رفع الغطاء، فإذا أنا أمام بلبل أبيض نقي البياض، مذهل، يتلفت، ينظر هنا هناك، كأنه يتعرف إلى المكان، حدقتاه السوداوان تلتمعان بذكاء، يتأملني، ينظر إلى صاحبه، يعيد النظر إلي،

سـألته: " لـم هـذا الغطـاء؟" أجـاب: "حتـى لا يصـيبه تيـار الهواء، أحضـرته في سيارة أجرة، عليك أن تعتني بالبلبل أكثر من عنايتك بنفسك، أبعده عن المطبخ، جنبه روائح الطعام"، ثم علق القفص على الجدار الغربي في داخل الإيوان المفتوح على فناء الدار، وعلق قفص بلبلي تحت دالية العنب، في الظل، وهو يقول لي: " جنبه الحر، ولا تدعه يرى الأستاذ، ولا تدع الأستاذ يراه، بعد أربعة أيام أوخمسة، يمكنك أن تعلقه هنا في الإيوان تحت قفص الأستاذ لا فوقه، هذه هي الأصول، يجب أن يسمع صوته من غير أن يراه، في اليوم السابع ستسمع تغريده، قد يغرد، ولكن إذا لم يغرد مثل الأستاذ، فافتح باب القفص وأطلقه، لأنه هذا يعني أنه مبندق، غير أصيل، على كل حال ، أنا سأرجع بعد أسبوع، لآخذ القفص، لا أريد أن أوصيك، أنت ستعتني بالقفص والبلبل من غير شك" وأنا أودعه عند الباب سألني: " أرجو ألا يكون في البيت قطة " أجبته: " اطمئن أمي لا تحب القطط، إذا رأتها على السطح أسرعت إلى طردها، لذلك ترى شجرة التوت عندنا مأوى لكل العصافير والحمائم وحتى الغربان".

بعد أسبوعين زارني صديقي، سألني : " كيف التلميذ؟" أجبته : " استمع إليه، فاق أستاذه" ، علق : " صدق المثل، من خلّف مامات "، سألته: " ما ذا حصل؟ " أجاب: " ليتني تركت البلبل والقفص عندك، بعد يوم من أخذي القفص، رجعت إلى البيت، فوجدته واقعاً في فناء الدار، وعلى الأرض بقع دم، والريش الأبيض متناثر، هي قطة الجيران من غير شك" .

وجاءت زوجتي مثل أمي لا تحب القطط، أحبت البلبل، بدأت تعتني به، في أيام الخطبة كنت أحدثها عنه، كم كان يحلو لي الحديث عنه، وكم كان يطيب لها الاستماع: " غداً ترينه، يألفك، أشقر، ذهبي الشعر، تضعين له جنح التفاح فيداعبك، ينقر إصبعك بلطف "، كانت تشتاق إليه،

تقول: " أمس رأيته في نومي، فتحت الباب لأطعمه، فأفلت مني، هرب، طار" ، أرد ضاحكاً: " لا تخافي، لن يهرب، لن يطير" وكان فعلاً قد ألف القفص، مرة فتحت له الباب، حثثته بيدي، قفز مدهوشاً خارج القفص، طار، ثم حط فوقه، حثثته، طار إلى غصن شجرة التوت، قفز من غصن إلى غصن، وأنا أرقبه، ثم عاد فحط على القفص، أخذ يقفز حوله، كأنه يبحث عن الباب، ولما فتحته له، دخل فيه.

لا أعرف الآن مصيره؟ القفص حطمته، قالت لي ابنتي: " احتفظ بالقفص إلى أن ترجع من باريس، عندئذ تشتري بلبلاً آخر"، ولكنني أبيت، لا معنى للقفص من غير بلبل، ولا معنى للبلبل من غير قفص، عندما كنت في مصر، زرت متحف القاهرة، رأيت المومياء، لقد استطاع المصريون القدامى حفظ الجسد، ولكن لا قيمة للجسد وحده من غير البا، أي الروح، وهم لم يحفظوا الجسد إلا لكي تعود إليه الروح، ومن الطريف أنهم تصوروا الروح في هيئة طائر.

أنظر من النافذة، آه، نحن فوق البحر، جارتي العجوز ماتزال تحتسي الشاي، وهي بهذا العمر تقضم قطعة الحلويات، يبدو أنها لا تشكو من السكري مثلي، كيف سأبدأ الحديث معها؟ هل أسألها لماذا أنت مسافرة إلى باريس؟ وإذا سألتني فكيف سأجيبها؟ هل أقول أنا ذاهب إلى ولدي أمجد، الطبيب المختص في الأمراض التناسلية لإجراء عملية؟ لا أعرف هل يرجع جسدي وروحي معاً أم يرجع جسدي وحده؟ هل تطير مني الروح؟

طار البلبل، أنا طيرته بيدي، أمسكته بيدي وأطلقته في الفضاء، لم أجد من يرعاه بعدي، ابني قال ممازحاً: " فلنذبحه ولنأكله"، أحس بامتعاضي، فقال:" والله أنا أمزح"،

ابنتي قالت: " فلنبعه هو والقفص " سألتها ممازحاً: " وماذا سنفعل بثمنه؟" أجابت :" نشتري قفصاً صغيراً فيه عصفور صناعي صغير، يستجيب لأي صوت، كالتصفيق مثلاً، أو لصوت إغلاق الباب، فيأخذ في التغريد ، أنا وعدت ابنتي رجاء بذلك" زوجها قال: " أطلقه ياعمي، أطلقه في الفضاء الرحب ".

زوجتي عنيت بالعصفور، ظلت تعنى به إلى أن رزقنا بابنتنا الأولى أمل، عنئذ قل اعتناؤها به، بل أخذت تتذمر منه، وعندما جاء الولد الثاني عماد، قلَّ اهتمامها به، بل نسيته كلياً، وازداد أنا بالمقابل تعلقي به، ثم انتقلنا إلى الدار الجديدة، دارنا المغلقة، بعد شهرين تقريباً مات البلبل، عاش عشر سنوات، بعد ذلك لم أشتر غيره. قبل خمس سنوات توفيت زوجتي، ثم أحلت أنا على التقاعد، بلغت الخامسة والستين، ضجرت من الوحدة، مللت، اشتريت هذا البلبل، أرجعني إلى أيام الشباب، ذكرني البلبل الأول، وجدت فيه أنسي وتسليتي.

السيدة العجوز إلى جواري ترجع بمقعدها إلى الوراء، مقعدها يوازي مقعدي، تستلقي فيه، أحس بها وهي تفتح حقيبة يدها، تستل منها المرآة، تخرجها من الحقيبة، ترفعها إلى مستوى نظرها، ترى وجهها، هكذا أحس بها، من غير أن ألتفت، يدفعني الفضول، ألتفت قليلاً، أختلس النظر إلى المرآة، غير معقول، ليست مرآة، هي صورة، أستوي في مقعدي، ألتفت إلى السيدة مباشرة، أتكلم:

ـ جميلة جداً هذه القطة، لا شك أنها عزيزة إلى نفسك.

تلتفت إليَّ السيدة العجوز، وجهها يقابل وجهي، ماتزال فيه بقايا من جمال أنيق، تتكلم بصوت هادئ:

ـ شكراً لإطرائك، هي أثيرة جداً إلى نفسي، لكن للأسف، تركتها، وسافرت، لم أجد من يؤويها، كل أولادي

تشتتوا في البلاد، واحدة في كندا والثانية في أستراليا، ولدي الوحيد في باريس، أنا مسافرة لحضور حفل زفاف حفيدي، أعز صديقاتي اعتذرت عن إيواء القطة، شقيقتي قالت لي: " سافري، واتركيها، ما المشكلة؟ آلاف القطط تسرح في الشوارع، لن تجوع "، أخي لم يشأ سماع حديثي عنها، قال :" أرجوك، لا تذكري كلمة قطة أمام زوجتي "، لا أعرف لماذا تنفر زوجة أخي من القطط إلى هذا الحد، ترى هل أرجع فأجدها على قيد الحياة؟.

تصمت هنيهة، ثم تتكلم بصوت متقطع كأنها تحبس دموعها:

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك بالحديث عنها؟!

هل أحدثها أنا عن البلبل؟.

ﮪﮪ

هدايا ..خان الخليلي

في اليوم الأخير من زيارتي إلى القاهرة، أهبط من المقطم، مودعاً القلعة، محمّلاً بالسيف الدمشقي المذهب، منحدراً نحو خان الخليلي.

أطل على القاهرة القديمة، على يميني قبة الحسين، وعلى شمالي مآذن الأزهر تشمخ في إباء، أميل إلى الحسين، أخلع خارج المسجد حذائي، لأنسى الدنيا، فأجد الدنيا كلها قد اجتمعت في الداخل، عند الضريح ألتقي المصلي والذاكر والقارئ والمتبتل والمتمسح بالأبواب والجدران والساجد عند الأعتاب والسابح في الملكوت والذاهل والخاشع والمجذوب، ومن وراء الضريح حيث المصلى الخاص بالنساء أسمع نواح ثكلى وعويل أرملة وتوسُّل عانس ودعاء حامل ترتجي ولداً ذكراً، أخرج مبهوراً وقد نسيت قراءة الفاتحة.

يحتويني خان الخليلي، يطوّقني بقلائد من سُبَّحات وعقود من خرز ملون زائف، يحيطني بآلاف الأهرامات والمسلات النحاسية الصغيرة والجمال الخشبية وتماثيل الملوك والفراعنة والكهان والكتاب من حجارة مختلفة وقد احتشدت كلها جماعات جماعات وتوزعت على الأرصفة وفي واجهة المحلات وسط آلاف أخرى من التحف والهدايا والتذكارات من الجلد والخشب والنحاس واللدائن ومما

أعرف ومما لا أعرف. أجدني وسط أمواج متدافعة من السائحين والسائحات العاريات الظهور والصدور، وتطفو فوق الأمواج نداءات الباعة وإلحاح المتسولين ويخالط ذلك كله عبق البخور الشرقي وروائح الشواء.

أمر بمقهى " الفيشاوي " وقد امتلأت مقاعده بالسائحين والسائحات وهم يرتشفون الشاي، وينفثون دخان " المعسِّل " من النراجيل المفضضة والمذهبة، ويلتقطون الصور التذكارية حيث قيل لهم: " هنا كان يقعد ـ مدَّ الله في عمره ـ نجيب محفوظ ".

تنفحني العطور الشرقية شذاها، فإذا أنا في أول الموسكي، حيث تتألق زجاجات العطر الشفافة كأجساد السائحات شبه العاريات، وتتصاعد أشذاء البهارات والتوابل الفاغمة، يخالطها عبق الأجساد المتعرقة في الزحام، وترف في واجهة المحلات " الجلابيات " المصرية متألقة بألوانها القزحية الزاهية، مطرزة بقصب ذهبي يسحر القلوب والأجساد.

ويعلو اللغط والصخب والضجيج حيث يضيق السوق بباعة الرصيف والعربات والبسطات، وكل يريد أن يقتنص نظرة من نهد سائحة شبه عارية أو بضع جنيهات من سائح لا يعرف كيف يساوم، والبائع يرطن معه بالفرنسية والإنكليزية والإيطالية، فهو يعرف كل لغات البيع والشراء، حتى العربي يحسبه فرنسياً فيكلمه بالفرنسية، وحين يكتشف أنه عربي مثله، ولكنه ليس من مصر، يغلي في الثمن ويطلب أضعاف أضعاف.

أخرج من عنق الموسكي متخلصاً من أجساد التصقت بها أو التصقت بي في الزحام والحر، لا أعرف كيف، وأنعطف إلى الشمال، أدخل ساحة مكتظة بالباعة، أنعطف إلى الشمال ثانية، أدخل في شارع ذي اتجاهين يوازي الموسكي، ولكنه أشد منه اختناقاً وأكثر ازدحاماً، لا بالأجساد فحسب ولكن بصفائح الحديد أيضاً، وسخام العوادم وهدير

المحركات وضجيج العجلات وزعيق الأبواق، فهو مزدحم في الأرض وفي السماء بالسيارات، سيارات من تحت وسيارات من فوق، فالسماء مسقوفة بشارع يخنق الأنفاس، ويسد المنافذ، والشارع الذي هو فوق مرفوع على أعمدة طوال كالأشباح تزيد الازدحام ازدحاماً.

أرقى في الشارع صعداً، أستشرف مآذن الغوري والأزهر، وهي تعلو في السماء، والسخام يحيط بها، كأنها تتنفس بصعوبة، عند الغوري يسرقني بائع الكشري، يغمرني عبقه الحريف، أنجذب إليه كأني أنجذب إلىجسد امرأة سمراء لعوب، وأنا الجائع، أغط ملعقتي في الصحن، أمزج الخليط، أحس له طعماً شهياً، والبهار الحار يغمره. صحن واحد عجيب، اختلط فيه كل شيء بكل شيء، الأرز والمعكرونة والطماطم والشطة الحارة والعدس والحمص وشرائح البصل المحروقة والملح والفلفل والخل والبهار، مثل اللافتة فوق المطعم، حيث تقول: " مطعم هابي تايم للكشري "، مصري على عربي على إنكليزي، كخان الخليلي، أو كالفلك الدوار، فيه الشقي والتقي، والصالح والطالح.

قبالة باب الأزهر أقف عند بائع العصير، أشرب كأسين، الأولى من قصب السكر أرتشفها كالرضاب، والثانية من عصير " المانجة "، لا أعرف كيف ألتذ بها، فهي كالشفاه الناعمة.

أدخل الأزهر، وقد خلعت حذائي، تركته ورائي، وفي الهدوء المقدس أصلي ركعتين، تنحلُّ كلُّ العقد، ترتاح المفاصل، تطمئن الضلوع، تسكن الروح، في النداوة الطاهرة ينطفئ وهج الجسد المشتعل، في ظل مشعشع بالصمت والنور أغفو.

يقفز في داخلي نداء السوق: هل سرق الحذاء؟ الدودة تنخر في الدماغ، أخرج إلى لغط الحياة والضجيج، أدخل في غمرة السوق، أحمل على جسدي ثانية آلاف الآثام، وأنا أخالط السائحين والبائعين والسارقين والمتسولين

والسائحات، لا أعرف إلى أين سينتهي هذا السوق؟ هل تتكسر نهود السائحات قبل أن تتكسر أعواد الساقين ويكل النظر ويضعف؟ هل تفرغ المحلات من حاجاتها قبل أن تفرغ الصرتان؟

خارج الأزهر أجد حذائي في موضعه، ولكن أين السيف؟ قبل ساعة حمَّلني إياه الحاجب في القلعة، قال لي: " خذ هذا السيف الدمشقي، أيها الجندي القادم من دمشق، احمله إلى صلاح الدين، ليسميك الفارس الأول، ولكن لا تنس، قبل أن تغادر القاهرة، لا بد أن تمر بالأزهر الشريف فتصلي فيه ركعتين، وتشتري من جواره بعض الكتب، تحملها هدية إلى صلاح الدين في دمشق ". كيف لم أذكره؟ لا شك أني فقدت السيف، لاأعرف كيف؟! هل سقط مني في زحمة السوق؟ هل سرقه مني لص رشيق؟ هل أهديته إلى تلك السائحة الشقراء، التي التقيتها في محل لبيع العطور الشرقية، في أول الموسكي، وقد بهرني صدرها الأبيض العاري، ونهداها الصغيران الناعمان؟ هل سلبته مني بائعة الترمس الذهبي المسلوق في آخر الموسكي، وقد أغرتني سمرتها المصرية المتألقة، وشعرها الأحمر المصبوغ، وفمها المكتنز، وصدرها الرجراج الممتلئ، وهي تناولني كوز الترمس وتلف جسمها بملاءة سوداء، وأساور الذهب الزائف توسوس في معصمها؟ هل رهنته عند بائع التحف والهدايا، مقابل أهرامات نحاسية صغيرة وجمال خشبية وسبَّحات من خرز ملون وتماثيل لملوك وفراعنة وكهان وكتاب من حجارة مختلفة؟.

تقف أمامي سيارة إجرة وهي تتهادى كالنسيم، السائق يدعوني، أدخل فيها، وأنا أقول له:

ـ هيا، عجِّل، أرجوك، ولكن لا تمر بالقلعة، انعطف إلى مدينة المقابر، ومنها مدينة النصر، ثم إلى المطار مباشرة.

كيف أضعت السيف؟ هل أقدِّم لصلاح الدين خرزاً

ملوناً وجمالاً من خشب وأهرامات صغيرة من نحاس وهو الذي زودني قبل خروجي من دمشق بصرتين من ذهب، وأوصاني..

أجدني في المطار، أمام بوابة المغادرين، كيف حطت بي السيارة هكذا؟ الطريق إلى المطار أعرفها مزدحمة دائماً، لا أكاد أصدق، كأنني على جناح البراق، أسرع إلى النزول، السائق يستوقفني، فإذا به يحمل على كلتا يديه صندوقين، يرفعهما إليَّ بهدوء، كأنني في حلم، كأنه ملاك متوج بهالة من نور، الصندوق الأول مكعب، يبدو ثقيلاً، الثاني متطاول، يبدو رشيقاً، كلاهما مطعمان بالفضة والذهب والعاج.

يتقدم مني مرهقاً، وهو يقول:

ـ أتعبتني، وأنا أجري وراءك حتى لا أفقدك.

وأسأله:

ـ ماهذا؟

ـ الكتب، والسيف الدمشقي المذهب، هديتك إلى صلاح الدين في دمشق.

ثلاجة بالتقسيط .. والمشروع الآخر

لا، لن أشتري الثلاجة بالتقسيط، ولو أمضيت بقية عمري من غير ثلاجة، هأنذا الآن، أملك ثمن الثلاجة كاملاً، لا، لن أشتريها بالتقسيط.

يقف أمام المصعد، يده قابضة بقوة على خمسة عشر ألف ليرة، لم ينتظر، أخذ يهبط على الدرج، عند النافذة المطلة على الجهة الغربية من حلب، وهو يهبط على الدرج، يقف.

حلب تمتد أمامه سهلاً فسيحاً منبسطاً، والعمارات تملؤه، مثل قطعان غنم ونوق بيض، ثم ترتفع شيئاً فشيئاً، هذا مبنى البلدية، وهذا فندق أمير وذاك المجمع الحكومي، وإلى جواره تنهض شامخة قباب جامع الرئيس ومئذنتاه مثل عروس، ووراءه يبدأ جبل الجوشن بالنهوض، يعلوه مبنى الإذاعة، وإلى جواره يقف مثل القلعة جامع الرشيد ... وتمتد حلب وتمتد، مثل البحر، والشمس وراءها تغيب، لا بحر في حلب، ولانهر، حتى نهر قويق جف، حبسته تركيا فمات، ولكن حلب هي النهر والبحر، ونحن سواقيها.

هناك في شارع الإذاعة تختبئ شقتي الصغيرة، وزوجتي تنتظر قدومي حاملاً إليها الثلاجة، كم أهواك يا حلب.

أقول للمحاسب، وأنا أقبض الخمسة عشر ألف ليرة: " هنيئاً لك هذه النافذة، فالقلعة تبدو من ورائها مثل جدة عجوز ترعى أحفادها وقد التفوا حولها، كم المشهد عندك جميل "، ويعلق المحاسب بنبرة ساخرة: " اقترب من النافذة وانظر منها إلى أسفل "، يدفعني الشوق، فأقترب، أطل، وإذا أسطحة البيوت القديمة مغطاة بآلاف الأطباق الفضائية، أعلق مدهوشاً: " ياه، كل هذه الأطباق "، يضحك المحاسب، يعلق: " انظر، تأمل أكثر". أدنو من النافذة أكثر، أنظر، وإذا القمامة والصناديق المكسورة والخرق العتيقة هي أكوام أكوام، وأرتد إلى المحاسب خائباً، يقول لي متشفياً :" هذه هي حلب؟ هل رأيت؟ " أقول له:" آه لو تراها من الطائرة وأنت ترجع إليها بعد غيبة أربع سنوات، أنا رأيتها أول اقتراب الطائرة منها، من علو آلاف الأمتار، رأيتها مثل حمامة بيضاء، فوراً عرفتها، القلعة في الوسط، مثل نواة الذرة، والبيوت البيض تدور حولها، نترونات والكترونات، في حركة دائبة، حلب مركز الكون، ونواة الوجود، وسر الحياة، صحت عندما رأيتها: " هذه هي حلب " كانت زوجتي إلى جانبي، وضعت يدها على يدي وبكت، وأخذت الطائرة تلف وتدور وهي تدنو منها شيئاً فشيئاً، كأنني ساعتها ولدت من جديد، كأنني أراها أول مرة، لو ترى يا أخي قلعتها وأنت تدنو منها، كأنك تدنو من حضن أمك "، ويرد المحاسب: " خذ هذه هي الخمسة عشر ألف ليرة، عدَّها، ولا تقل لي بدِّل هذه القطعة بغيرها، هذه هي النقود، هكذا اليوم تسلمتها من المصرف، كلها ممزقة " .

ممزقة، أو غير ممزقة، هي خمسة عشر ألف ليرة، ليت لي الآلاف من مثلها ممزقة، وهي أيضاً حلب، مسقط رأسي وملعب صباي وحبي وأحلامي، ولو ملأت أسطحتها الأطباق الفضائية، أو القمامة، لا ليس هناك قمامة، هي صناديق قديمة، يمكن الاستفادة منها في أي وقت.

يخرج من مبنى نقابة المعلمين، يستقبله ضجيج الشارع، وصخبه، يقف هنيهة يتأمل الحياة، وهو يحمل في يده خمسة عشر ألف ليرة، هذه هي أول مرة طوال حياته

يمسك فيها بيده مثل هذا المبلغ، ثلاثون خمسمئة عداً ونقداً سلمه إياها المحاسب في نقابة المعلمين.

يسير باتجاه البحيرات السبع، مجذوباً كالطفل نحو المياه المتقافزة إلى أعلى والمتناثرة رذاذاً على أضواء المصابيح الملونة، والسيارات تقبل نحوه تغمره بضجيجها وصخبها وأبواقها، وسط غبشة المغيب التي يحبها، ويتناهى إلى سمعه الأذان للمغرب، يأتيه من الجامع الأموي، يأتيه من جامع الدباغة، هو صوت المؤذن الشيخ سليمان، يعرفه، ينعطف إلى الجامع الأقرب، إلى جامع الدباغة، لعله يلتقي، يضع الخمسة عشر ألف ليرة في جيب بنطاله الخلفي، يحكم الزر عليه، يخلع حذاءه، ويذهب إلى الموضأ.

" إنا أعطيناك الكوثر..."

يشعر بالصفاء، وهو يصغي إلى الإمام، والنسمات الصيفية الناعشة تمسح جبينه، وهو بين صفوف المصلين، في فناء الجامع، وصخب السيارات يتناهى إليه ممزوجاً بنشيش الماء المتقافز من البحيرات السبع، والخمسة عشر ألف ليرة في جيب بنطاله، يحسّ لها حيزاً لايمكن أن يغفل عنه.

يذهب ذهنه إلى أخيه، هل يلتقيه بين المصلين؟ قبل أن ينهض من الصلاة، أخذ ينظر هنا وهناك، ولكن لا أحد، لاشك أنه مشغول عند نهاية النهار في جمع الغلة وعدّها، فليبارك لـه الله في رزقه.

عند باب الجامع، وهو يخطو خارجاً مع المصلين، تحط يد على كتفه، يتوقع أن يكون أخاه، يلتفت، وإذا هو عثمان.

يفتح عينيه، يحدق فيه، يسأله غير مصدق:

- هذا أنت ياعثمان؟!

ويرد عثمان بهدوء:

- نعم، هذا أنا.

ـ يبـدو أنـك بعـد سـقوط الكـرملين مـا وجـدت غيـر الجامع؟

ـ لا، يا أستاذ حسن، صدقني نور الله كان في قلبي من زمان، ولكن مرحلة ومرت، هي حالـة ثقافيـة، تعلمت منـها الكثير، ولا يمكن أن أنساها، وعلى الإنسان أن يتعلم.

وبلهجة مختلفة يسأله:

ـ هل رأيت أخي؟

ـ أخوك ذهب إلى الجامع الكبير، ليحضر درس الشيخ عبد الله سراج، بعد صلاة المغرب.

ويمضـيان معـاً، يحـس بـالإنس للقـاء عثمـان، يـدعوه عثمان إلى تناول الصبار.

علـى الرصـيف المقابـل للبحيـرات السـبع، يقـف مـع عثمان، يستمتع برذاذ الماء المتطـاير تحملـه نسـمات صـيفية ناعمة، وهو يتناول من يد البائع قطعة الصـبار، يزيـل عنـها القشـر برشـاقة، فيتناولـهـا، رطبـة بـاردة، صـفراء ناضـجة، يستسيغ طعمها الحلو.

ـ هل تعرف ياعثمان بائع ثلاجات؟

ـ وهل تريد شراء ثلاجة ؟

ـ نعم، ثلاجتـي ماعاد ينفـع معهـا التصـليح، اشـتريتـها أول زواجنـا قبـل عشـر سـنوات، اشـتريتها مـن سـوق الخميس مستعملة، أخذتها في ذلك الوقت بـألف وخمسـمئة ليرة.

ويرد عثمان، وهو يدفع للبائع ثمن الصبار:

ـ أنصح لك أن تمرهنا بشارع عبد المنعم رياض، ثـم تـذهب إلـى منطقـة العبـارة، سـتجد مئـات المحـلات لبيـع الأدوات المنزليـة، وسـتجد مئـات الأنـواع، عينـك معـك، ونقودك بجيبك، اسأل هنا وهناك، قبل أن تشتري.

ـ ولكن لا أعرف أحداً ؟!.

ـ ليس من الضروري، كل يوم تباع مئات الثلاجات.

ليس لي سوى أخي، هو أكبر مني، وهو أكبر تاجر في السويقة، يعرف من غير شك الباعة هنا في شارع عبد المنعم رياض، لابد أن يكون له فيهم صاحب أو صديق أو ربما شريك، لن أشتري الثلاجة بشطارتي، لابد من أن أستعين بخبرته، ليدلني على أفضل نوع، لن أشتري كل يوم ثلاجة، هي ثلاجة العمر.

يصمت عثمان هنيهة، ثم يتكلم:

- أنا أنصح لك بسؤال الشيخ سليمان.

يضحك، يضحك كثيراً، ثم يعلّق :

- وهل تظن أني سأضرب مندلاً أو أعقد سحراً؟

- صدّقني ياأستاذ حسن، أنا لا أمزح معك، ولا يذهب بك بعد ذلك الظن بالشيخ سليمان.

ويقاطعه حسن:

- أنا أعرفه، أعرفه قبلك، تأتيه النساء، هذه تسأله أن يرد لها زوجها المشغول عنها بعشيقة، وتلك ترجوه أن ينظر في مستقبل ابنتها وهل تناسبها خطبة ذلك الشاب لها.

ويتكلم عثمان، وهما يسيران باتجاه جامع الدباغة :

- لا يا أستاذ حسن، الشيخ سليمان ماهو مشعوذ ولا ساحر، هو مجرد مؤذن في الجامع، حقيقة هو ليس مثل الشيخ عبد الله سراج، هذا رجل عالم، فاضل، تقي، والشيخ سليمان إنسان عادي، ولكنه ذكي ويعرف أكثر الناس، وله خبرة بالنفس الإنسانية، حرم البصر، ولكن منح البصيرة، والحياة بحاجة لهذا وذاك، لابد أن تكتمل الدائرة.

ويعلق حسن ممازحاً:

- هذه من بقايا أفكارك القديمة.

ويرد عثمان:

ـ لا، هذه فكرة مختلفة كلياً، صدقني الحياة مدرسة، تعلم الإنسان أكثر من أي مدرسة، على كل حال، نحن سندخل على الشيخ سليمان، أنا سأسأله، أنت لاتتنبس بكلمة، وسأقول له: إن صديقاً لي سيشتري ثلاجة، فبماذا تنصح لنا؟ صدقني يعرف كل الباعة هنا في شارع عبد المنعم رياض، وسيوصيهم بك، وسينصح لك بأفضل نوع، وستأخذها بالتقسيط وعلى دفعات متباعدة، ومن غير فائدة.

ويصيح حسن :

ـ أنا معي ثمن الثلاجة عداً ونقداً، لا أريد التقسيط.

ويدخلان الجامع معاً، يتجهان إلى الشيخ سليمان، وهو قاعد على مصطبة في الفناء، مستمتعاً بالنسمات الصيفية، وإلى جانبه إبريق ماء زجاجي، تسبح فيه مكعبات الثلج.

يلقي عليه عثمان السلام، ثم يقعد قبالته متهيباً، ويقعد إلى جواره حسن، بهدوء تام، حابساً أنفاسه، يرد عليه الشيخ سليمان السلام، قائلاً :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أهلاً بك، وبمن هو على يمينك.

ويرد عثمان ممازحاً :

ـ ليس معي أحد.

ويعلق الشيخ سليمان:

ـ خطواته تأخرت عنك، ولكن أنفاسه سبقتك إليّ، ولو نطق بكلمة لقلت له أنت فلان.

وينطق حسن :

ـ مرحبا بالشيخ سليمان.

يصمت هنيهة الشيخ سليمان، ثم يتكلم:

ـ أهلاً بالأستاذ حسن، لاشك أنك جئت إلى السويقة تقصد أخاك حسين في حاجة، هو لا يصلي هنا المغرب يوم

الثلاثاء، يصليه في الجامع الكبير، ليحضر درس الشيخ عبد الله سراج، نفعنا الله بعلمه.

ويسأل عثمان وهو يشعر بالزهو والانتصار:

ـ وكيف عرفت أن الأستاذ حسن جاء يقصد أخاه في حاجة ؟

ويتكلم الشيخ سليمان:

ـ أنا أعرف حسن وحسين، ووالدهم رضوان، عليه رحمة الله، بيتهم كان هنا في حي الفرافرة بجوار مدرسة النجاة، دارهم واسعة، فيها تسع غرف، وفي وسط الفناء بركة وشجرة توت، وكان فيها دالية، الوالد توفي عليه رحمة الله، وحسين استلم محل والده في السويقة، وحسن استمر في الدراسة، الله يقويك يا أستاذ حسن، عملك في التعليم هو أشرف مهنة، الرزق واحد، والرازق واحد، هذه هي قسمتك، أخوك كل يوم يصلي هنا في الجامع، ويسلم عليّ، ولكن أنا أعرفك أكثر منه، أنت مشغول بالتعليم وتصحيح الأوراق، من حين زواجك، قبل عشر سنوات إلى اليوم، ماجئت إلى السويقة، أنا أعرف، ليس لك عمل هنا، وإذا كنت بحاجة إلى أي شيء، اسألني، أنا في مقام والدك، واسأل بعد ذلك إذا أردت الأخ حسين، هو بمنزلة ولدي.

يتردد حسن، ويتكلم عثمان:

ـ الأستاذ حسن يريد شراء ثلاجة ولا يعرف.

يقاطعه الشيخ سليمان بصوت جهوري:

ـ ثلاجتك عند أبو عمر، في رابع محل بشارع عبد المنعم رياض، ثلاجة تعمل بالهواء، ولا تجمع الثلج، أمس نزل عنده منها أكثر من خمسين قطعة هي أحدث نوع، ثمنها 24 ألف ليرة، لاتدفع أكثر، على كل حال، أنت قل له: " الشيخ سليمان يسلم عليك "، احملها ولا تدفع ثمنها.

يخرج من باب الجامع، يحسّ بالضيق، يكتئب،

لايدري، أهي نبوءة أم وساطة؟ ليته لم يدخل على الشيخ سليمان، وليته لم يسأله، هو من قبل لم يشأ أن يسأل الشيخ سليمان، ولم يرد زيارته، لم يأت إلى السويقة إلا ليسأل أخاه.

يحث الخطا، متجهاً إلى السويقة، عثمان يسير إلى جانبه، يمرّ بخان العلبية، يدخل السويقة.

من هنا اشترى لي والدي أول حقيبة مدرسية، رفض الحاج محمد أن يأخذ من أبي ثمنها، قال له: " هذه هدية لولدك حسن، سنراه معلم مدرسة إن شاء الله "، هذا الشاب الذي يقف في المحل الآن هو ابنه، لاشك أنه لا يعرفني.

ـ تعال ياعثمان، سأشتري حقيبة يد.

خارج المحل يلتفت إلى عثمان، يقول له:

ـ شكراً ياعثمان، لولا تدخلك كنت دفعت له ثلاثمئة ليرة كما طلب، صدقني ما توقعت أن يبيعني الحقيبة بمئة ليرة.

ـ هذا هو قانون السوق.

ليس من عادتي أن أحمل حقيبة يد، ولكن لا بأس الآن في شرائها، كثيراً ما أكون في مقهى أو سهرة عند صديق، ويطلب مني قراءة قصة، فأعتذر لأني لا أحمل معي شيئاً، سأضع فيها دائماً قصة أو خاطرة، لأقرأها حيثما يطلب مني، هذا هو سوق حجي أفندي، هو سوق الأحذية، أجمل الأحذية كانت تباع هنا، ولكن لا أحد يرتاده الآن، أحذية سوق حجي أفندي أصبحت ذات سمعة رديئة، أحذية منطقة العبارة وشارع التلل هي المطلوبة، لا لشيء إلا لأن المحلات التجارية هناك حديثة، وواجهاتها الزجاجية مضاءة بمصابيح شتى، مع أن الأحذية هناك هي الأردأ، شكلها وحده هو الجذاب.

عشر سنوات لم أزر فيها السويقة؟ وكيف أزورها وأخي استولى على محل أبي وعلى الدار الكبيرة في حي الفرافرة، الشيخ سليمان فتق كل الجروح، على كل حال

الأخ هو الأخ.
ـ هل تتوقع ياعثمان أن يكون أخي رجع من الجامع الكبير؟.
ـ لاأتوقع، درس الشيخ عبد الله السراج يمتد في العادة إلى العشاء، أخوك سيصلي العشاء في الجامع الكبير ويرجع.
ـ إذن، سأذهب إلى الجامع الكبير، وأستمع إلى درس الشيخ سراج، وأصلي العشاء هناك، لابد أن أرى أخي.
ـ ولكن في بعض الحالات لا ينتظر أخوك إلى نهاية الدرس، يرجع أحياناً قبل أذان العشاء، أنا أرى أن تمر بالمحل أولاً، وتقعد، سأطلب لك صحن مثلجات.
ـ لابأس، سأمر بالمحل، وإذا لم أجده، تابعت طريقي إلى الجامع الكبير.
يدخل في زحام السويقة وضجيجها، كانت مزدحمة دائماً بالباعة، والمشترين والحمالين وعربات الدفع الصغيرة، ولكن ليس إلى هذا الحد، اليوم هي مختنقة، بل تكاد تنفجر، بعد ذلك أين محلات الصحون والزجاج والأدوات المنزلية؟ تحولت أكثرها إلى محلات الألعاب.
ـ السويقة تغيرت كثيراً ياعثمان.
ـ ونحن تغيرنا ياأستاذ حسن.
ويتكلم حسن مازحاً :

ـ حقيقة تغيرنا، ولذلك أسأل نفسي: كيف عرفني عثمان؟
ويرد عثمان:
ـ لا يا أستاذ حسن، أنا أعرفك وأعرف والدك، لا تنس أني بدأت العمل في محل الوالد وعمري عشر سنين، كنت

أنت في الإعدادية، كنت أشتري لك الدفاتر والأقلام والكتب من المحلات في سوق باب النصر، كنت أتمنى لو تعلمت في المدرسة مثلك، ولكن والدي توفي، وأمي كانت محتاجة إلى أجرتي، ووالدك الله يرحمه، كان يساعدنا، لا يمكن أن أنسى فضله، وكما يقال في المثل: " لحم كتافي من خيراتكم "، لولا فضل الله وفضله كنا تشردنا أنا وأمي وإخوتي.

يقبل حسن على المحل، يرى أخاه وراء المكتب، يلقي السلام، حسين يرد السلام رداً هادئاً، عيناه على الآلة الحاسبة أمامه، وأصابعه تضغط على الأزرار، وهو مايزال يعمل، بعد هنيهة، يرفع رأسه، يشير إلى كرسي وراء المكتب، قائلاً:

- تفضل، اعذرني حتى أنهي تدقيق هذه الصفحة.

وتمرّ ثوان، بل دقائق، يحسبها حسن أشهراً، يرفع حسين رأسه، يرسل زفرة، قائلاً:

- انتهينا الحمد لله، أهلاً، أخي حسن.

ويلتفت إلى الداخل منادياً بصوت عالٍ:

- ياسمير، نزّل من السقيفة عشرين علبة من علكة " الكرة "، اليوم بعنا منها أكثر من خمسين علبة، صارت مطلوبة الحمد لله، وأنت ياعثمان، هات لي من محلّ درويش أربعة طرود من النفاخات الطويلة، مثل الوسائد، لماذا تأخرت في صلاة المغرب، يبدو الشيخ سليمان أخّرك؟

ويرن جرس الهاتف، يرفع السماعة:

ـ نعم، نعم، أهلاً كريم، طلباتك، هات، امل عليّ، بسرعة، القلم معي، نعم، نعم، نعم، أي شيء آخر، لا، غداً، الساعة التاسعة الطلبات كلها تجدها في محلك، مع السلامة.

ويلتفت إلى حسن، محيياً:

ـ أهلاً أخي حسن، سامحني، الشغل كثير، درس

الشيخ سراج تركته وجئت، وهو عندي أغلى من روحي، لكن الشغل مطلوب، السوق نائم، ما فيه حركة، لكن أمس واليوم بدأ يتحرك، حركة هادئة، ماهي أكثر، ولكن ماذا نعمل.

ويرن جرس الهاتف، فيرفع حسين السماعة:

ـ أهلاً، أهلاً، قلت لك لاتقلق، والله سأحرِّك غرفة التجارة وغرفة الصناعة ونقابة العمال ونقابة المهندسين والبلدية، في كل مكان لي صاحب، والمال يفتح كل الأبواب، ماذا تريد أكثر؟ أخي اطمئن، أنا سأقترح تصغير البركة، لماذا سبع بحرات؟ لتكن بحرة واحدة، ولماذا قطرها ثلاثون متراً ؟ ليكن تسعة وعشرين متراً؟ ماذا يحصل؟ هل البركة أهم أم بناء تجاري مساحته الطابقية كذا ألف متر فيه خمسمئة مكتب؟ أنت بنيت البلد وطورتها، أنت تستحق المكافأة لا المخالفة، اطمئن؟ أمهلني أربعاً وعشرين ساعة، اطمئن، مع السلامة؟

ويلتفت إلى أخيه صارخاً :

ـ هل رأيت؟ هؤلاء هم طلابك، تفني عمرك معهم، ثم لايقدرون مصلحتك ولا مصلحة البلد، مهندس قرأ في كتاب مترجم عرض: الشارع يجب ألا يقل عن ثلاثين متراً، الرصيف لايقل عن ثلاثة أمتار، كلام كله نظري، هل نحن في باريس؟ نحن في حلب وشوارعنا كلها ضيقة، أظن أنك تعرف القصة، صديقنا أبو المجد، أكبر تاجر في هذا البلد ومن أعز أصحابنا التجار غلط وخالف، هو سيدفع المخالفة، ماهي متر ولا نصف متر، هي ربع متر، مدّ العمارة إلى قدام ربع متر فقط، ماذا حصل؟ الشارع عرضه ثلاثون متراً، والرصيف ثلاثة أمتار، الرجل صديقنا، ونحن التجار، الحمد لله، يد واحدة، قد نختلف، ولكن لا يمكن أن يتخلى الواحد منا عن الآخر، أنا سأقترح تضييق الرصيف، ليصبح مترين ونصف، أو تضييق البحرات، شباب لا يعرفون قيمتنا، نحن التجار نبني كل

يوم البلد ونطورها، لو قعد أحدهم هنا في مكاني لعرف قيمة السنتيمتر الواحد، انظر إلى طاولتي، طولها ستين سنتيمتراً، هي طاولة والدك الله يرحمه، الآن بإمكاني شراء طاولة طولها تسعة أمتار، ولكن لماذا ؟

يلقي القلم من يده، ثم يلتفت إلى الداخل منادياً:

ـ يا سمير، هات لنا من الثلاجة في الداخل زجاجة ماء بارد، اغسل الكأس، وهاتها.

ويلتفت إلى الأستاذ حسن يسأله:

ـ هل أطلب لك كازوزة؟ ولكن، أنا لا أطمئن إلى نظافة هذه الزجاجات.

ويتكلم حسن:

ـ أنا جئت أقصدك في أمر، أريد شراء ثلاجة جديدة.

ــ ولماذا الثلاجة؟ عندك ثلاجتك؟ رأيت السوق، السوق نائم، لابيع ولا شراء، مافيه حركة، ولماذا تركّب الآن على نفسك الدين، تحتاج إلى أكثرمن ثلاثين ألف ليرة، وكيف سوف تسدد الأقساط، راتبك لن يحتمل، الصيف يكاد ينتهي، صحيح نحن في أول تموز، ولكن عدَّ الأيام، تجد الصيف انتهى، أنا أعرف، زوجتك تلح عليك، قل لها أمي وأمك ما كان عندها ثلاجة، أنت تعرف، نحن كنا نضع الطعام في طبق وننزله إلى البئر، هل نسيت؟

ويحاول حسن الكلام:

ـ أخي، أنا

ويقاطعه حسين:

ــ أعرف، أعرف، لاتضيق على نفسك، ولا تشتر، صدقني في هذه الأيام لن تجد من يقرضك عشر ليرات، أنا والله عليَّ سندات مستحقة الدفع بثلاثة ملايين، وماعندي ألف، أنت لاحظ التجار في السوق، كل واحد يده على خده، هذا الطلب الذي سمعته على الهاتف، من سنة ما أتاني مثله، السوق نائم.

ـ أخي أنا معي خمسة وعشرون ألف ليرة سورية.
ـ معك ؟
ـ نعم، معي الآن خمسة عشر ألف، وفي البيت عشرة آلاف؟
ـ وكيف صار معك خمسة عشر ألف؟ صدقني أنا مافي جيبي عشر ليرات، من أين جئت بها؟
ـ نقابة المعلمين أقرضتني خمسة عشر ألف ليرة.
ـ خمسة عشر ألف ليرة هكذا دفعة واحدة؟!
ـ نعم
ـ ومن غير فائدة ؟
ـ ومن غير فائدة، ولسنتين ونصف.
ـ من نقابة المعلمين التي بناؤها هنا في مدخل السويقة ومطلة على البحرات؟
ـ نعم، هي، وهل هناك غيرها؟.
ـ أنا سأذهب غداً، وأقول لهم أخي معلم، ألا يمكن أن آخذ مثل هذا القرض؟
ـ لا شك أنك تمزح، أنت بغني عن القرض، على كل حال أنا أريد مشورتك في شراء الثلاجة.
ـ ومن أين اقترضت عشرة الآلاف الباقية؟
ـ لم أقترضها.
ـ ولا يمكن أن توفرها من راتبك، لاتؤاخذني، لهذا السؤال، آه، الآن عرفت، هذه من الدروس الخاصة؟.
ـ أنت تعرف أني معلم في المرحلة الابتدائية، وطلاب هذه المرحلة ليسوا بحاجة إلى دورات ولا دروس خاصة.
ـ وإذن كيف ؟
ـ الأستاذ محمد الراشد دعاني إلى كتابة زاوية أسبوعية في جريدة الجماهير.

ـ آه تذكرت، جاري مرة قال لي: " قرأت اسم أخيك الأستاذ حسن في الجماهير، هو يشتريها كل يوم، أحياناً أراها عنده، سألني: إن كان أخوك انتقل من التعليم إلى جريدة الجماهير، قلت له: والله لا أعرف "، إيه، قل لي: هذا الأستاذ الراشد هل يقربنا أو يعرفك؟

ـ لا، هو أديب، ورئيس تحرير الصفحة الثقافية.

ـ وكيف دعاك إذن للكتابة؟

ـ قرأ بعض مقالاتي، فأعجب بها، ودعاني للكتابة.

ـ هكذا، من غير وساطة ولا عمولة؟

ـ والله صدقني، الرجل لا أعرفه.

ـ وهو أعطاك عشرة آلاف؟!

ـ لا، الجريدة أعطتني ألفاً وخمسمئة ليرة.

ـ للمقالة الواحدة ؟

ـ لا، كتبت العام الماضي عشرين زاوية، وقبضت من شهرين تعويضها ألفاً وخمسمئة.

ـ وبقية عشرة الآلاف؟

ـ نشرت مقالة في الأسبوع الأدبي، وقبضت مكافأتها حوالي ألف وثلاثمئة.

ـ وكم يوماً أمضيت في كتابتها ؟

ـ كتبتها في سهرة واحدة، في ساعة أو ساعتين؟

ـ ساعة واحدة بألف وثلاثمئة ليرة؟ شيء رائع، اكتب، اكتب، أنا لو كنت في موضعك لكتبت كل يوم عشر ساعات، إيه، وبقية عشرة الآلاف، من أين جاءت؟!

ـ نشرت قصة في مجلة الفيصل بالسعودية العام الماضي، ومنذ يومين قبضت المكافأة، خمسة آلاف ليرة وخمسمئة.

ـ وهذه كتبتها في ساعة ونصف؟

ـ تقريباً .

- اكتب دائماً مثل هذه القصص، أنا في ذهني والله ألف قصة، تعال، أنا أحكيها لك وأنت اكتبها، وبعدها نقتسم التعويض نصفاً بنصف.

- ولذلك أريد مشورتك في شراء ثلاجة، لاشك لديك صديق بائع ثلاجات.

- أعرف أعرف، انتظر لحظة.

ويتقدم منهما ولد في الثانية عشرة، يقترب من طاولة حسين، يضع عليها بضع علب من العلكة، يباشر حسين بعدها، وهو يتكلم:

- هات ياصابر، كم علبة أخذت اليوم؟ وكم علبة بعت؟

- أخذت سبعين.

- ولكن أنا أعرف أنك تأخذ دائماً مئة.

- صدقني يامعلمي أخذت سبعين، يوم الجمعة آخذ مئة.

- وكم علبة بعت؟

- عد المرتجع.

- معي ثلاث وعشرون، بعت سبعاً وأربعين، هات ثمنها.

يضع صابر على الطاولة كومة من النقود الورقية والمعدنية، يفرزها حسين، يعدها ثم يتكلم:

- المبلغ تمام، خذ، هذه سبع وأربعون ليرة لك.

- معلمي، الله يخليك، اجعلها خمسين، والله أبي يضربني إذا رجعت ومعي أقل من خمسين ليرة.

يصرخ به حسين:

- خذ سبعاً وأربعين، هذه رزقك، وامش.

ويلتفت صابر إلى حسن:

- أستاذ حسن، قل لمعلمي يعطيني ثلاث ليرات.

يدهش حسن، يسأله:

ـ كيف عرفتني ياولد ؟

ويتكلم صابر:

ـ أستاذ حسن، أنا صابر، أنا طالب في مدرسة القنيطرة، في حي صلاح الدين، أنا طالب في الصف السادس، أنت درستني قبل سنتين، في الصف الرابع.

ويتدخل حسين:

ـ يالله، ياصابر، خذه هذه ثلاث ليرات، وامش، غداً سأقطعها من مبيعاتك.

ويتكلم صابر:

ـ أنت كريم يامعلمي، أنا أعرف أنك لن تقطعها.

ويمضي الولد، ويتكلم حسين:

ـ هؤلاء هم طلابك ياأستاذ حسن، هكذا علمتهم التسول والسرقة، هذا أكبر سارق، كل يوم يرجع إلى البيت ومعه أكثر من مئتي ليرة، لاتخدع بمظهره، يدعي أنه لم يبع غير سبع وأربعين علبة، هذا صحيح، ولكن سرق من جيب هذا وذاك مئة أومئتين، وربما ثلاثمئة، قد لاتصدق، هذا دخله في اليوم أكثر من دخلك أنت، الواجب أن تعرف من هم طلابك.

ـ ولكن أنت علمت هؤلاء، أنت المعلم الحقيقي، سمعته وهو يناديك: معلمي معلمي.

ـ لا يا أخي حسن، أنت المعلم، أنا تاجر، يكفي أني أحرك كل يوم بالعلكة في مدينة حلب وحدها خمسة ملايين ليرة، قد لا تصدق، سكان حلب ثلاثة ملايين، مليون منهم أطفال، كل طفل يشتري كل يوم علبة علكة ثمنها خمس ليرات، كل يوم تتحرك في السوق خمسة ملايين، أنا أبني البلد، لذلك حولت المحل من بيع الأواني المنزلية إلى بيع العلكة وأكياس البطاطا والألعاب، والدك الله يرحمه كان يبيع للعروسين أواني المطبخ، الإنسان في العمر يشتريها مرة واحدة، لكن تسالي الأولاد مطلوبة كل يوم، على كل

حال الزوج الذي اشترى من والدك أدوات المطبخ نحن اليوم نبيع أولاده العلكة وكيس البطاطا، وكما يقول المتنبي، لا أعرف إذا كان هو أم غيره: هذا ما جناه لي أبي، قل لي أليس هذا صحيحاً، أستاذ حسن؟ على كل حال بقية البيت عندك، أنا لا أعرف غير نصفه.

ويتكلم حسن :

ـ خلينا في الأهم، لنرجع إلى موضوع الثلاجة.

يرفع حسين سماعة الهاتف، يضغط على الأرقام، يتكلم:

ـ سأتصل الآن بأعز أصدقائي، لن يربح أبداً، آلو، هشام، أهلاً، ماأسعار الثلاجات اليوم، آه، 21 قدم، أحدث نوع، تبريد بالهواء، نعم، البيع نقدي، أربعة وعشرون ألفاً وخمسمئة، هذا سعر خاص، طيب، والتقسيط ستة وعشرون ألفاً، على اثني عشر شهراً، كل شهر تدفع ألفي ليرة، والدفعة الأولى أيضاً ألفا ليرة، تقسيط مريح جداً الحقيقة، آه، سأرسل إليك أخي، آه، نعم، أخي، ابن أمي وأبي، لابأس، لا، ليس الآن، غداً، بعد الحادية عشرة صباحاً، مع السلامة.

ويلتفت إلى أخيه حسن:

ـ مارأيك؟

ـ شكراً

ويرد بانفعال:

ـ شكراً، شكراً، ماذا تعني، هل ستشتري، أم لا، نحن فتحنا الهاتف للرجل وتكلمنا معه، ووعدناه.

ـ سأشتري.

ـ بالتقسيط أم نقداً ؟

ـ نقداً ؟

ـ ولماذا ؟ لتوفر ألفا وخمسمئة ليرة؟ اسمع، هات

أربعاً وعشرين ألفاً وخمسمئة، واحمل ثلاجتك غداً، وأنا سأشتريها على اسمي بالتقسيط، أنا سأدفع الأقساط، وأنا سأتحمل الفائدة، سمّها ماشئت، فائدة، فرق أسعار، لا يهم.

- ولكن أنا لا أريد.

- ياأخي أنت لاتريد، أنا أعرف، أنت ادفع، وامش، ولا تسأل، أنا سأتحمل كل شيء، ضعها في رقبتي.

- وهل أنت بحاجة إلى أربعة وعشرين ألفاً؟.

ويرد بغضب:

- بحاجة أو لست بحاجة، هذا أمر لايهمك، وأنت بعد ذلك لا تعرف قانون السوق والتجارة، أنا بهذا المبلغ البسيط أنزل اليوم بعد العشاء إلى مقهى التكية، قرب باب الفرج، أسهر مع أصحابي التجار، وأنا أدخن النارجيلة، أشتري قطعة أرض ثمنها ثلاثة ملايين، أدفع رعبوناً عشرين ألفاً فقط، أبيعها بعد ربع ساعة، وأنا قاعد في المقهى وعلى الطاولة نفسها، أربح فيها خمسين ألفاً، ثم أشتري سندات مستحقة من تاجر، أدفع فيها ربع ثمنها، أبيعها، أربح فيها عشرين ألفاً، أرجع إلى البيت بعد الساعة الثانية عشرة ومعي مئتا ألف ليرة عداً ونقداً، هل عرفت، كل تجار السوق لهم ثقة بي، حتى ولو لم يكن معي في جيبي ولا ألف ليرة، أنت لو بقيت معك مئة ألف مئة عام، لما استطعت أن تحرّك بها ساكناً.

ويرد حسن:

- ولكن سمعت أن هذه المقهى ستغلق، أو تهدم؟

- كيف تغلق أو تهدم؟ هي سوق البورصة في حلب، على كل حال، فلتهدم، هناك ألف مقهى وألف مكان غيرها.

يمضي حسن، يقفل عائداً، يخترق زحام السوق، يلتقيه صابر، يحييه، وهو يمد إليه يده بالنقود:

ـ انظر أستاذ، والله معلمي أعطاني اثنتين وأربعين ليرة بدلاً من سبع وأربعين، المبلغ ناقص خمس ليرات، الآن إذا رجعت إليه فلن يصدّق، بالله يا أستاذ، ماذا قال لك

عني بعدما رحت، أنا متأكد من أنه قال عني إني لص وحرامي، صدّقني أستاذ أنا دائماً الأول في الصف، ولكن والدي عامل، ونحن تسعة أولاد.

يمدّ إليه حسن يده بخمس ليرات فيرد صابر محتجاً :

ـ لا، أقسم بالله لن آخذ أي شيء.

يتابع حسن طريقه، يبلغ البحرات السبع، يتأملها، غداً سوف تصبح أصغر مما هي عليه، غداً سينقص الرصيف، غداً ستمتد العمارة المطلة عليها أكثر فأكثر، ستنقض عليها مثل نسر، لتبتلعها كلها.

وبمضي في شارع عبدالمنعم رياض، المحل الأول، الثاني، الثالث الرابع. يقف أمام المحل، هو نفسه، نعم، محل أبو عمر، وهذه هي الثلاجات نفسها، السعر المعلن 24500 ليرة سورية نقداً 26000 ليرة سورية بالتقسيط لمدة سنة والدفعة الأولى فقط ألفا ليرة.

ويدخل المحل:

ـ السلام عليكم، أرسلني إليكم الشيخ سليمان.

ـ وعليكم السلام، أهلاً بك، وبه، تفضل أي خدمة.

ـ أريد ثلاجة من المعروضات هناك خارج المحل.

ـ هي لك.

ـ والسعر؟

ـ لأجلك ولأجل الشيخ سليمان بـ 24000 ليرة.

ـ سأدفع لك رعبوناً الآن 15 ألف ليرة، وغداً آتي صباحاً ومعي بقية المبلغ.

ـ أخي احملها ولا تدفع أي شيء، أين بيتك؟

ـ في شارع الإذاعة.

ـ الآن سيأتي الحمال، الحمولة إلى البيت مجانية، هي على نفقة المحل، كرمى لك وللشيخ سليمان، أنت فقط أعط للحمال مئة ليرة، لأنه سيحمل لك الثلاجة على ظهره.

ـ وبقية المبلغ؟

ـ أحضره غداً، وإذا كنت مصمماً، فأعطه للحمال، هو رجل مؤتمن، غداً صباحاً يحضره إلي.

أين الخمسة عشر ألف ليرة؟ هل هي في هذا الجيب؟ أم ذاك؟ لا أجد شيئاً، لا في جيوب البنطال، ولا في جيب القميص، هل سرقت مني في زحام السويقة، هل سرقها صابر؟ لايعقل؟ أين ذهبت الخمسة عشر ألف ليرة؟.

ويدخل المحل عثمان، وهو يلهث:

ـ أستاذ حسن، نسيت حقيبة يدك عند أخيك حسين، هذه هي كما كانت على طاولة أخيك، لم نفتحها ولا نعرف مافيها.

يشكر عثمان، يقول له:

ـ فيها يا أخي ثمن الثلاجة.

يفتحها، يدفع للبائع الخمسة عشر ألف ليرة، يلتفت إلى عثمان، يقول له:

ـ يا أخي اقبل مني الحقيبة هدية، هذه أول مرة أحمل فيها حقيبة، وأنساها، لن أحمل حقيبة بعد اليوم.

ويتدخل أبو عمر:

ـ أنت عثمان، تعمل في محل حسين بالسويقة.

ـ نعم، أنا عثمان، وهذا الأستاذ حسن شقيق الأخ حسين، وأنت أبوعمر، صديق الشيخ سليمان، هو الذي دلنا إلى محلك.

يمد إليه أبو عمر يده مصافحاً :

ـ أهلاً بالأستاذ حسن، أنا أعرفك، وأعرف والدك رحمه الله، كان رجلاً فاضلاً.

ثم يلتفت إلى أجيره:

ـ ياولد، هات لنا خمسة صحون مثلجات.

وينظر فيه أجيره، متسائلاً، فيتكلم أبو عمر:

ـ نعم، خمسة، واحد لك، ونحن ثلاثة، وواحد للحمال، هو في الطريق، الآن سيأتي.

المثلجات بالحليب لذيذة، لست أدري لماذا أحس لها طعماً مختلفاً، النسمات الصيفية الناعمة تمسح الوجوه فتنعشها، ونحن على الرصيف، غداً أصنع مثلجات لأولادي في الثلاجة الجديدة، لينعموا بصيف جميل، الصيف الماضي لم نذق الماء المثلج، وأكثر من مرة فسد الطعام ورميناه.

يرن الهاتف المحمول، فيرفعه أبو عمر إلى أذنه، وهو مسترخ في كرسيه، يرفع صوته:

ـ أهلاً بديعة، لماذا الاتصال في هذا الوقت؟ لا، لا أستطيع أن آتي الليلة، عندي سهرة في مقهى التكية، سهرة عمل وتجارة، السهرة لا تنتهي حتى الثانية عشرة، أو الواحدة بعد منتصف الليل، يجب أن أعود إلى البيت، زوجتي ستخرب الدنيا، بديعة، يابديعة، الله يرضى عليك، غداً، بعد العصر، أمر بك، أحضر لك كل ماتطلبين، يكفي الآن، اذهبي، اسهري حيث شئت، لا أعرف، لن آتي، مع السلامة.

بديعة؟ زوجتي؟ بديعة؟ هل هي نفسها؟ لا، هذا مستحيل، هو من غير شك اسم مستعار لراقصة أو عاهرة، هو اسم مستعار، من غير شك، ولكن الاسم عندي مقدس، هو اسم زوجتي، أحس أني مقيد بسلاسل من حديد، أنا أختنق، لا كانت الثلاجة، ولا كانت ساعة شرائها، سأنهض، سألغي المشروع كله، هل أطلب منه أن يرد لي النقود؟ نحن لم نوقع عقداً ولم نحمل الثلاجة، ماتزال الثلاجة في أرضها.

شاحنة صغيرة تقترب من الرصيف، تقف، ينزل منها سائق عجوز، لا أعرف كيف يمكنه أن يحمل على ظهره الثلاجة، التاجر أبو عمر يناديه:

ـ تعال تناول المثلجات، إلا إذا كان الأستاذ حسن على عجلة من أمره.

ويرد الأستاذ حسن:

- لا، لا داعي للعجلة.

سأنهض، ما عدت أريد شراء الثلاجة، أخي، أرجوك، أنا ما عدت أفكر في شراء الثلاجة، اعذرني أنا آسف، أرجوك رد لي المبلغ، سأترك لك خمسة آلاف، الآن سأتصل بأخي الشاعر أحمد دوغان، سأطبع مجموعتي القصصية الثانية عنده، في دار الثريا للنشر، لن يغدر بي ولن يخونني، أنا لم آخذ القرض من نقابة المعلمين إلا لطباعة مجموعتي القصصية، ونقابة المعلمين ما أعطتني القرض إلا لطباعة المجموعة، ولكن أنا ضحيت واتفقت مع الأستاذ علاء الدين الرفاعي صاحب دار القلم العربي ليطبع مجموعتي على نفقته، مقابل خمسين نسخة، خمسين نسخة فقط، وأوفر الخمسة عشر ألف ليرة، أشتري بها ثلاجة، ولكن لا، الآن انتصر المشروع الآخر، غداً أرجع إلى البيت حاملاً خمسين نسخة من مجموعتي الأولى، من منشورات دار القلم العربي، وألف نسخة من مجموعتي القصصية الثانية، من منشورات دار الثريا، وعلى نفقتي، لن أشتري الثلاجة، بدلاً منها سأطبع مجموعتي الثانية، زوجتي بديعة ستفرح، ستهلل، ليست كباقي النساء، كلما كتبت قصة فرحت بها، هي قارئتي الأولى، اطبع مجموعتك، اطبعها، هكذا دائماً تقول لي، سوف نمضي هذا الصيف من غير ثلاجة، هذا هو مشروع العمر، تطبع مجموعتين وتنتسب إلى اتحاد الكتاب العرب.

الحمال العجوز يحمل الثلاجة على ظهره وحده، يحزمها في الشاحنة.

في الطريق إلى البيت، يسأله السائق العجوز:

- بكم باعك أبو عمر الثلاجة؟

- بأربعة وعشرين ألفاً.

ويتكلم السائق العجوز:

- صدقني لم يربح غير مئة ليرة، أنا أعرف الرأسمال،

قل لي من أوصى بك عنده؟.
- الشيخ سليمان.
- لأجل الشيخ سليمان يعطيك إياها من دون ثمن.
- ولماذا؟
- اليوم صباحاً جلب لـه الشيخ سليمان لـه أغلى خبر.
- وما هو؟
- قانون الاستثمار، سيصدر بعد يومين.
- طوال العام الماضي كنا نسمع عنه في الإذاعة.

ويرد السائق العجوز:

- الشيخ سليمان أخبره، وبناء على كلامه سحب من رصيده في تركيا ثلاثة ملايين دولار، حوالي مئة وخمسين مليون ليرة سورية.

- وهل قرأ الغيب الشيخ سليمان أو فتح المندل أو ضرب في الرمل، حتى يصدقه أبوعمر ويتصرف وفق ما يجلب لـه من أخبار؟.

- الشيخ سليمان على صلة مع الكبار فوق.
- لا أصدق.

- ولماذا لا تصدق؟ صدق، هذه دنيا العجائب، كل شيء ممكن، عشنا وشفنا، ما سمعت عن انهيار الاتحاد السوفييتي، والعالم كله يمشي في الرأسمالية.

وتدخل الشاحنة شارع الإذاعة، السائق العجوز يلتفت إلى اليسار، يقترب بالشاحنة من الرصيف، يقودها بهدوء، يتأمل المنظر المطل على المدينة، وهو يتكلم:

- المنظر من هنا جميل، حلب مثل العروس ليلة زفافها، وهي تسبح في الأضواء، انظر إلى قلعتها من بعيد، والأضواء تنيرها، مثل ليلة القدر، كم هي رائعة، غداً ترى عشر سيارات شبح تسبح في شوارع حلب اشتراها معلمي وفق قانون الاستثمار، هنيئاً لك ياأستاذ السكن هنا.

يرد الأستاذ حسن:

ـ شقتي أنا هناك، خلف جامع الرشيد، شقة صغيرة، مختبئة وراء البناء، محشورة في الزاوية الخلفية، تطل عليها الأبنية من كل الجهات، وليس لها نافذة ولا شرفة، لا ترى الشمس، ولا تشم الهواء.

ويعلق السائق العجوز:

ـ يكفي أنك تسكن هنا، في هذا الشارع العالي، تطل منه على حلب، وعندك هذا الرصيف، يمكنك أن تخرج كل ليلة أنت والأولاد، لتتنسم الهواء، وترى حلب كلها، وهذا جامع الرشيد بجوارك، فوق الجبل، يشرف على المدينة، مثل فارس فوق صهوة فرس، يحميها، أنا أهنئك، الفجر هنا جميل، وأنت ترى الشمس تطل من وراء القلعة لتوقظ المدينة، أنا أسكن هناك، تحت، في شارع الفيض المنخفض، مقابل الملعب، في الدور الثاني تحت الأرض، أنزل إليه أربعين درجة، الرصيف فوق لا أراه، كلما فاض نهر قويق كانت داري تغرق، هذا قبل أن تقطعه تركيا عنا ويجف، وتحرم منه مدينة حلب، ليته لم يجف ولتغرق داري كلها، أنا أحب حلب، لا أرى أجمل من حلب، عندما أسمع كلمة حلب أحس أني اسمع اسم أمي أو أختي أو بنتي أو زوجتي، هي كل شيء، حلب هذا الاسم وحده ماله مثيل، في الدنيا كلها أظن لا يمكن أن تجد أجمل من حلب.

المحتوى

عــود قصــب أجــوف 6
الخزانة و المرآة 13
اللقــاء الجد يـــد.. 27
سيــارة رؤوف.. 39
غيمـــة و غيمـــة.. 47
ابنتي. . واللوحـــــة 51
الذبابــة والشمــس... 54
رصاصة تودّ أن ترتد 57
زيارة.. بصحبة المدير 60
الحديقــــــة.. 71
لست رجــلاً 89
ملف حفل تكريم الفنان 96
فيـروز الهيــام.. 105
أبو شفيــق... 112
هـل أنهـض؟.. 126
صورة القطــة... 134
هدايا ..خان الخليلي.. 142
ثلاجة بالتقسيط .. والمشروع الآخر 147
المحتوى... 171
مؤلفاته المنشـورة... 173

المؤلف

- من مواليد مدينة حلب عام 1949.
- تخرّج في قسم اللغة العربية وآدابها من جامعة حلب عام 1972.
- حاز دبلوم الدراسات العليا من جامعة دمشق عام 1973.
- عين مدرساً في وزارة التربية عام 1974.
- عين معيداً في جامعة حلب عام 1977.
- نال الماجستير في الأدب العربي الحديث من جامعة حلب عام 1981.
- حاز الدكتوراه في الأدب العربي الحديث من جامعة دمشق عام 1984.
- عين مدرساً للأدب العربي الحديث بجامعة حلب عام 1984.
- عضو اتحاد الكتاب العرب بدمشق منذ عام 1983 .
- عضو هيئة تحرير جريدة الأسبوع الأدبي من عام 1997إلى عام 2000 م.
- عضو نادي التمثيل العربي منذ عام 1988 .
- عضو جمعية العاديات بحلب منذ عام 1998.
- عضو اتحاد الصحفيين منذ عام 1999 .
- حاضر في جامعة تشرين باللاذقية في الأعوام 1987_ 1988 _ 1989.
- عمل أستاذاً معاراً إلى جامعة سبها في القطر الليبي من عام 1990 إلى عام1994
- حاز جائزة المركز الاستشاري لتعليم اللغة اليابانية في حلب عن القصة القصيرة عام1995

- **حاز جائزة البتاني في الرقة عن القصة القصيرة عام 1997.**
- **حاز جائزة جريدة الثورة بدمشق عن القصة القصيرة عام 1998.**
- **حاز جائزة الباسل للإبداع الفكري بمدينة حلب عام 1998.**
- **رئيس قسم اللغة العربية من عام 1998 إلى عام 2000 .**
- **أمين سر اتحاد الكتاب العرب – فرع حلب منذ عام 2001 .**
- **أستاذ الأدب العربي الحديث بجامعة حلب**

مؤلفاته المنشورة

- **حركة التأليف المسرحي في سورية، (دراسة) :**
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1982، 430 صفحة، قطع كبير
- **من الحكايات الشعبية، (مجموعة حكايات شعبية)**
وزارة الثقافة ، دمشق، 1983، 194 صفحة، قطع وسط.
- **يوم لرجل واحد، (مجموعة قصص قصيرة)**
اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 1986 ، 200 صفحة، قطع وسط
- **المسرحية التاريخية في المسرح العربي المعاصر، (دراسة)**
دار طلاس، دمشق، 1989، 374 صفحة، قطع كبير
- **حجارة أرضنا ، (مجموعة قصص قصيرة)**
مطبعة عكرمة، دمشق، 1989، 109 صفحات، قطع صغير
- **الكوبرا تصنع العسل، (رواية)**
دار القلم العربي، حلب، 1996، 145 صفحة، قطع كبير
- **بدر الزمان، (مسرحية)**
دار القلم العربي، حلب، 1996، 104 صفحات، قطع كبير
- **حلم الأجفان المطبقة، (مجموعة قصص)**
اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1996، 335 صفحة، قطع وسط
- **عريشة الياسمين، (مجموعة قصص)**
دار القلم العربي، حلب، 1996، 256 صفحة، قطع وسط

- دراسات في المسرحية العربية، (دراسة) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب، 1997، 185 صفحة، قطع كبير

- حكايات شعبية (نصوص ودراسة) :

اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999 ، 770 صفحة، قطع وسط

- دروب الشعر العربي الحديث (دراسة) :

مطبوعات جامعة حلب ، حلب 2000 ، 240 صفحة، قطع كبير.

- لأنكِ معي (مجموعة قصص قصيرة جداً) :

دار شمأل ، دمشق ، 2000 ، 180 صفحة، قطع صغير.

- طعم العصافير (مجموعة قصص قصيرة) :

دار القلم العربي، حلب، 2001، 112 صفحة قطع وسط.

- قصائد مقارنة (دراسة ونصوص) :

مطبوعات جامعة حلب، حلب ،2001، 125 صفحة، قطع كبير.

_دراسات نقدية من الأسطورة إلى القصة القصيرة(دراسة):

منشورات دار علاء الدين، دمشق،300،2001صفحة،قطع كبير.

_العودة إلى البحر(مجموعة قصص قصيرة):

اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، 153،2001صفحة،قطع وسط.

أحمد زياد محبك

- من مواليد مدينة حلب عام *1949*.
- دكتوراه في الأدب العربي الحديث عام *1984*.
- أستاذ في جامعة حلب.
- عضو اتحاد الكتاب العرب.

صدر للمؤلف

- يوم لرجل واحد 1986 اتحاد الكتاب العرب دمشق
- حجارة أرضنا 1989 مطبعة عكرمة دمشق
- حلم الأجفان المطبقة 1996 اتحاد الكتاب العرب دمشق
- عريشة الياسمين 1999 دار القلم العربي حلب
- لأنك معي 2000 دار شمأل دمشق
- طعم العصافير 2001 دار القلم العربي حلب
- العودة إلى البحر 2001 اتحاد الكتاب العرب دمشق

❑❑

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

الرحيل من أجل مها: قصص / أحمد زياد محبك- دمشق:
اتحـــــاد الكتـــــاب العــــــرب، 2003 –
247 ص؛ 20سم.

1- 813.01 م ح ب ر
2- 813.009561 م ح ب ر
3- العنوان 4- محبك

ع- 2003/4/624 **مكتبة الأسد**

❑❑